المعلومةُ الصّائبةُ تُصحِّحُ الخاطئةُ

(من الخوف إلى الإرهاب)

تأليف

آ د. عقيل حسين عقيل

2018م

(فكّر فيما تفكّر فيه وأنت فيه تفكّر)

د. عقيل حسين عقيل

المحتويات

المقدّمة	5
المعلومات الصائبة حُجَّة	8
تفكيك المعلومة حُجَّة:	15
الخوف	18
الخوف معيار التوازن:	28
الخوف نقطة الانطلاق الموجبة:	32
التوجس:	32
الحذر:	35
الخشية:	36
التخاذل:	39
الجبن:	41
استنهاض الخوف صناعة مستقبل:	45
الخلاف	51
عِلل الخلاف:	53
دوافع الخلاف:	55
الاختلاف	58
عِلل الاختلاف:	59
أدوات الاختلاف:	60
الاختلاف حُجّة لإظهار الحُجّة:	61
مؤشّرات الاختلاف (أنا، أنت، نحن):	66
النّاس بين اختلاف وخلاف:	73
الخلاف والاختلاف بين إصلاحٍ وإصلاحٍ مساند:	81

الخلاف والاختلاف بين تكيّف وتوافق: 86
الإرهاب إعداد عدّة 91
إعداد العُدّة يُرهب المخِيفين ويقضي على الخوف: 100
معطيات الإرهاب: 104
القوّة: 107
العُدّة: 112
الإنسان: 115
التطرف وكمون الحلّ 124
العقل مركز الإدارة العامّة: 124
وجوبية التَّمركُزْ: 127
التمركز وكمون الحلّ: 128
أثر الدوافع في سلوك المتطرِّف: 138
التطرُّف الإرهابي: 142
الوَسيطية جزء من المشكلة أم جزء من الحلّ: 149
التطرّف والدين: 162
القراءة متغيرة والنصّ ثابت: 162
الجهاد والتطرّف 173
صدر للمؤلّف 177
المؤلّفات 177
المؤلّف في سطور 190

المقدّمة

المعلومة خبرية تكشف المجهول وتجعله معرفة معلومة، سواء أكانت المعلومة المتحصّل عليها استقراء أم استنباطا أم استدلالا (مشاهدة وملاحظة)، ما يجعل توفّر المعلومة منبِّها لما يجب تجاه المعلوم؛ إيجابا أو سلبا.

ولأنّها المعلومة فهي بين صائبة وخاطئة، ولكلٍّ أثره على الفعل والعمل والسّلوك، ولهذا فالمعلومة تضع من يأخذ بها بين الإقدام (على) أو الإحجام (عن) أو التجنّب (من) أو الحياد (بين) في حالة الغموض أو عدم الإلمام بالمترتب على اتخاذ المواقف بين الرأيين أو مجموع الآراء.

ومع أنّ مفهوم المعلومة مجرّد فإنَّ الأخذ بها أو عدم الأخذ بها لا يكون إلّا سلوكا أو فعلا، ومن ثمّ: المعلومة الخاطئة توقع الفعل والعمل والسّلوك في الخطأ، وفي المقابل المعلومة الصائبة تضع هذه المتغيرات على الصواب، ومن هنا: تولد الخلافات والصدامات والنزاعات والاقتتالات تحت عناوين مختلفة، منها الخوف والتطرّف والإرهاب والعنف وغيرها كثير.

ومع أنّ المعلومة في ذاتها إضافة معرفية فهي موضوعية، سواء أكانت موجبة أم سالبة، وينبغي أن يعلمها الإنسان بغاية المزيد العلمي والمعرفي، أي: ينبغي أن يعلم الإنسان المعلومة البناءة والمعلومة الهدامة لكي يأخذ بالبناءة ويتجنّب الهدامة.

ولا عيب في المعلومة أيّا كانت، بل العيب يلحق من يعلمها ولا يستفيد منها إيجابيا، وفوق ذلك يكون العيب العظيم على من اتخذ عيوبها سلوكا.

ولا شكّ أنّ الشّعوب تطوّرت بالمعلومة، وما زالت تتطوّر، وما زالت تبحث عن المعلومة بالمعلومة من أجل أن تزداد ارتقاء وتقدّما، وفي المقابل من الشعوب من تخندق في جهله وتخلّفه ومرضه وأداء الغير ما جعل من المواجهة حقّا ينبغي أن يحقّ بين باطل وحقٍّ.

ولأنَّ المعلومة مصدر المعرفة وعيًا أو جهلًا (خيرًا أو شرًّا) كان الخلاف والصراع على أشدِّه بعلل المعلومة الخاطئة، وأوّل اقتتال بعلل المعلومة الخاطئة كان بين ابني آدم الأوَّلين اللذين تقاتلا بغير جقٍّ، ثم اتسعت دوائر الخلاف باتساع دوائر الكم البشري وزيادة مطالبه وحاجاته المتعددة والمتنوّعة في مقابل انخفاض المشبعات لحاجاته المتطوّرة.

وعليه: فالمعلومة في بعض الأحيان تزوّر المعلومة، وتحيد بها عن مفهومها ودلالتها؛ فمفهوم الاختلاف على سبيل المثال: أخذ في أذهان البعض مفهوم الخلاف، ممّا جعل تسويقهم لمفهوم الاختلاف ليس في مكانه. أي: هناك من جعل مفهوم الاختلاف مفهوم تضادي في الوقت الذي لا يكون فيه الاختلاف إلّا تنوّعا خلق؛ ذكرا وأنثى، وإنسًا وجنًّا وملائكة وجمادا ونباتا وطائرا وماء ويابسة وسماوات وأرضين، وكذلك تنوّع خُلقي؛ قيم فضائل وأديان وأعراف وعادات.

والأكبر من ذلك ما لُبّس إلى مفهوم الخوف الذي هو نعمة من نعم الخالق علينا، فالمفاهيم وكأنّها لا تميّز بين مفهومه ومفهوم الجبن.

أمّا ما يقال عن مفهومي: (التطرّف والإرهاب) فهو بحقّ ما يخالف مفهومهما دلالة ومعنى، فالإرهاب الذي جاء أمرا منزّلًا من عند الله، أصبح مرتبطا بأفعال الرّعب والظلم والعنف والعدوان، وهو: ليس كذلك.

وعليه: أقدّم مؤلّفنا (المعلومة الصّائبة تصحح الخاطئة: من الخوف إلى الإرهاب) إلى القراء ليكون بين أيديهم حجّة موضوعيّة، أو يردون علينا بما هو أكثر حجّة حتى نصحح معلوماتنا ومعارفنا ونزداد علمَا.

أ د. عقيل حسين عقيل

القاهرة 2018م

المعلومات الصَّائبة حُجَّة

المعلومات الصّائبة شواهد موضوعية صحيحة ترشد إلى المعرفة الواعية، وكشف الحقائق كما هي، ومعرفة المجهول عن وعي، وهي حُجّة تمكّن من المجادلة صوابا، والتجادل بها لا يكون إلّا عن قناعة بالموضوع أو القضية التي من وراء حُجّتها حُجج أعظم.

ومن ثمّ؛ فأصحاب الحُجج تطوّرا يسعون إلى إحداث النُّقلة، والارتقاء بالنّاس إلى ما يجعلهم قمّة، وفي المقابل من يخالفهم بغير حُجّة يشذّ إلى الخلف إعاقة، وبين هذا وذاك؛ فلا استقرار، ولا أمن، ولا ارتقاء ولا تطوّر لأحد ما لم يؤخذ بالحُجّة ارتقاء واستيعابا، ولا استثناء لأحد بأيّة علّة، إلّا إذا كان أحد علّة في ذاته، ولا استغراب إذ لكلّ قاعدة شواذ، ومع ذلك، الحجّة الجدباء لا تصمد أمام الحجّة الحلّ التي تعلو بأصحابها تطوّرا وارتقاء إلى ما يمكّن من المعرفة، التي بها سترتق الأرض والسّماوات كما كانت أوّل مرّة.

ولأنّها المحاجّة، وفيها من المجادلة ما فيها؛ فهي لا تكون إلّا بالتي هي أحسن، {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[1]؛ أي: لا ينبغي أن تكون المجادلة بالتي هي أسوأ؛ فالأسوأ لا يقود إلّا للخلاف والصّدام والاقتتال؛ فيلد الألم ألما.

وحتى لا يسود الألم بين النّاس ينبغي الأخذ بمبدأ المحاجّة والمجادلة حرصا وتطوّرا وارتقاء، ويجب أن تبدأ المحاجّة مع المختلفين من حيث هم عليه اختلافا، لا من حيث ما يجب أن يكونوا عليه اتفاقا؛ فما ينبغي أن يكونوا عليه اتفاقا هو المأمول الذي من أجله تجري المحاجّة بالتي هي

[1] العنكبوت 46.

أحسن، أمّا المجادلة غِلظة؛ فلا تكون إلّا مع من يستغلظ على الحقّ بغير حقّ، وهنا، يصبح المستثنى من جنس المستثنى منه (غلظة بغلظة) ومع ذلك؛ فللعفو والصّفح مكانة لا يبلغها إلّا من تدبّر أمره حكمة.

ولأنّ الجدل بالتي هي أحسن وسيلة للارتقاء؛ فينبغي أن تكون أساليبه على الترغيب والتشويق والنّهي والرّهبة والتحذير والإنذار مع مراعاة الفروق الفردية بين المجادلين ارتقاء؛ ففي الجدل الرسائل تُرسل بين المجادلين لكلٍّ حسب ما هو عليه من معرفةٍ، وثقافةٍ، ومعتقدٍ، ومنّطقٍ، مع عدم إغفال أهمية الحكمة في إدارة الجدل؛ فالإنسان مع أنّه خُلق من نطفة، ولكنّه خصيم، ولهذا؛ فهو مجادل، ولأنّه كذلك؛ فمن حقّه أن يجادل، ولكن حرصا وتطوّرا وارتقاء ينبغي أن يجادل بالتي هي أحسن؛ فهو كلّما جادل بالتي هي أحسن كسب قلوب النّاس، وفي المقابل متى ما استغلظ عليهم استغلظت قلوبهم عليه.

ولذلك؛ فالجدل تطوّرا وارتقاء لا ينفصل عن الحُجّة، مع أنّ الحُجّة أساسا هي معلومة مستقلّة بذاتها، وستظل إلى أن تُستخدم أو تُوظّف جدلا، بما يقرّ حقّا أو يؤدِّي واجبا، أو يُمكّن من حمْل مسؤولية، ومن ثمّ، فالحُجّة تُفحِم أو تُلزِم من كان على غير حُجّة حتى يُغيّر ما بنفسه، ومن هنا، تلد الموعظة والعبرة ارتقاء. وفي المقابل الجدل غِلظة يدخل المجادلين في حلقة الصّدام الذي كلّما انتهى بدأ.

ولأنّ الجدل بالتي هي أحسن جدل حُجّة؛ فينبغي أن يكون على اللين مع تبيان الدّليل والبرهان شاهدا بين أيدي المتخالفين، ولنا في إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام القدوة الحسنة حينما جادل أباه آزر وهو يخاطبه بقوله، {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ

صِرَاطًا سَوِيًّا يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}[2]؛ فقوله وهو يجادله رأفة وودّا: (يَا أَبَتِ) وهو يكررها مرات (يَا أَبَتِ)، هي: بهدف صحوة أبيه آزر من الغفلة التي ألمت به، والجهل الذي استحوذ على عقله، وبخاصّة أنّ إبراهيم لم يخفِ علمه وحرصه ومحبّته له، ولذلك؛ كان ارتقاء إبراهيم مؤسّسا على عدم الإكراه؛ فالإكراه هو: حجّة من ليس له حُجّة، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النّاس حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[3].

ولأنّه الجدل حجّة؛ فهو لا يكون إلّا عن صبر، وسعة صدر، بهدف استيعاب المختلفين، وأخذ الحجر من أيديهم التي به امتلأت، ولذا، ينبغي أن يمتلك المجادل المقدرة على استجلاب الدلائل والبراهين لإثبات قضيّته، وفكّ القيد عنها، مع فكّ اللبس والغموض عمّا يستخدمه من مفاهيم. وفي هذا الشأن أتذكّر تلك المجادلة التي جرت بين النبي إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ومن حاجّه في ربّه، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}[4]؛ فاللبس في ذهن من جادل إبراهيم في ربّه كان متعلّقا بمفهوم الإحياء والإماتة؛ فإبراهيم قال: (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)، وفي المقابل كان قول المجادل: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ). واللبس هو: أنّ إبراهيم يجادل بحجّة من يحيي ويميت، وفي المقابل فهم المجادل أنَّ الإماتة هي القتل، ولهذا أجابه بقوله: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) أي: وكأنّه يقول: إذا أردت أن أقتل أحدًا قتلته، وإذا أردت عدم قتله تركته حيّا. ولكنّ الفرق كبير بين القتل

---

[2] مريم 42 . 45.

[3] يونس 99.

[4] البقرة 258.

الذي يكون على أيدي المتقاتلين أو القتلة، وبين الموت الذي لا يكون إلّا بيد الله تعالى.

إذن: الحُجّة يمكن أن تكون مُعجزة تفحم المجادل بغير حُجّة، {قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}[5]، وفي المقابل يمكن أن تكون حلّا، ويمكن أن تكون موعظة، ويمكن أن تكون عبرة، ويمكن أن تكون دليلا ملاحظا أو مشاهدا (قولا وعملا وفعلا وسلوكا) {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا}[6].

وعليه:

فالجدل هو: التوجُّه للنّاس بالحُجّة تطوّرا وارتقاء، وهي الحُجّة التي لا تقبل التنازلات، ذلك لأنَّ الحُجّة ينبغي أن يؤخذ بها، أمّا التفاوض فلا ينتهي إلّا بتقديم التنازل الذي من ورائه تنازلات.

ولذلك؛ فالمجادلة تطوّرا وارتقاء فيها مكابدة وعُسرة، وهي في معظم الأحيان تستدعي تقديم المزيد من الحُجج الدّامغة التي لا تستفزّ أحدا، وبتقديم المزيد من الحجج ينبغي أن ينبهر الخصم بما يجذبه إلى الحقّ حُجّة من بعد حُجّة.

ومن ثمّ؛ فالصّبر حُجّة المتجادلين؛ فعليهم به دون استرخاء، ولا داعي للقلق حتى وإن كانت الاستفزازات من ورائه، بل كلّما طال زمن التجادل والصّبر لم يفارق المتجادلون حُجّة بحُجّة كلّما اختنقت أنفاس من لا حُجة له.

---

[5] البقرة 158.

[6] يوسف 26.

ففي المجادلة إصرار، وعدم إعطاء الفرصة لمن يريد أن ينهي الجدل قبل الوصول إلى نتائج مقنعة، أمَّا الحوار فقد لا تكون فيه مكابدة، والمتجادلون عندما يفقدون قواعد الرّكون إلى المحاجّة المنطقية، قد يضطرون إلى الخصام الذي لا طائل من ورائه إلّا الخلاف والفرقة؛ فيصبح كلّ شيء ممكنا سواء أكان متوقّعا أم غير متوقّع.

وعندما تغيب الحُجّة بين المتجادلين ارتقاء، يصبح المجال بينهم مفسوحا للخصام والاقتتال؛ فالجدل وما فيه من شدّة يعد هو منطق السّلام، الذي إن لم يؤخذ به قد تصبح مصارف الدّم بين النّاس في حاجة للمزيد.

فالمحاجّة تطوّرا وارتقاء ليست نقاشا بلا دراية، ولا مفاوضات بلا خبرة ولا مهارة، بل المحاجّة تحاور يتكئ على حُجج بيّنة بغرض تنقية الشوائب التي نُسجت بين المتخالفين أو المختلفين، الذين يميلون عن صائبة المطلب والقول بعلل فيها علّة.

ومع أنّ الإنسان ارتقاء قد خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه خُلق ليجد نفسه بين قيم حميدة وفضائل خيّرة، وبين استفزاز الحاجات المتطوّرة في مقابل قصور مشبعاتها؛ ممّا يدعوه إلى قبول التكيّف بتنازلات، أو أن ينتظر زمن التوافق الذي قد يطول ويجعله على غير أملٍ.

ومع أنّ الإنسان خُلق على الارتقاء مقوّما، فإنَّهُ لم يُخلق نسخة واحدة وكأنّه أوراق سحب، بل لكلٍّ خصوصيته التي بها يتميّز عن غيره كما يتميّز غيره عنه؛ فالنّاس مختلفون، ولكلّ بصمته الخاصّة التي لا تتكرّر، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا

مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[7]؛ فما أعظم هذه الآية (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي: مع أنّهم من نفس واحدة فإنَّهم لا يتطابقون وإن تماثلوا صفة؛ فهم مختلفون بصمة ومقدرة وتذكّرا وتدبّرا وتفكّرا، ولهذا؛ فهم يختلفون، وسيظلون مختلفين (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي: أنّهم خُلقوا على الاختلاف الذي جعلهم في حاجة لحشد الطّاقات إذ لا إمكانية للتطوّر والبقاء بغير الاختلاف.

ولأنّهم خلقوا على الاختلاف؛ فهم في حاجة لِما يجمع شملهم متى ما اختلفوا، أو تخالفوا؛ فالمحاجّة والجدل جهود تُبذل لإظهار الحقيقة التي لا تكون إلّا بامتلاك السّند الذي يَحتكم به ويُحتكم إليه، ومع ذلك تختلف المجادلة عن المحاجة من حيث كون المجادلة تتمركز على التمسّك بالحُجّة دون تفريط ولا يأس ولا قنوط، أمّا المحاجّة فالأمر يقتصر على تقديم الحُجّة لتكون شاهدة على القضية، ولمن شاء أن يحكم بها عدلا؛ فليحكم.

ومع أنَّ الجدال حُجّة تسنده الحقائق، ولكن عبر العصور لم تكن الحجّة هي الحجّة؛ فهناك من يعتقد أنّ تفسيره للمعلومة هو الحقيقة في الوقت الذي لا يميّز فيه صاحبها بين الحقيقة كونها معلومة أو نتيجة، وبين ما يتراءى له تفسيرا ليس إلّا؛ ففي تلك الأزمنة الأسطوريّة كانت الثّقافة شفويّة، فيها من الخيال والخرافة ما فيها، وفيها من البطولات الكلامية بغير بطولات ما فيها، فيها الحقائق تزوّر، والأكاذيب تسوّق، والأنا شاهد على كلّ الشواهد، أمّا كفّة ميزان الغير فهي على الدّونية، في الوقت الذي فيه الغير قد لا يكون كذلك.

[7] هود 118، 119.

إنّه العصر الذي سادت فيه الحكاية والسّرد الخيالي، واللجوء إلى مظاهر الطبيعة الكونية، وكأنّها كما يراها اليوم العالم الفيزيائي ستيفن هوكنيغ خالقة لا مخلوقة، وبالتوقّف عند هذه العلّة تفحُّصا نلاحظ وكأنّ زمن الأسطورة ليس ببعيد عن زمننا، حيث انعدام وجود الحجّة دليلا شاهدا بين أيدي النّاس.

ففي ذلك الزّمان كانت المبالغة الكلاميّة هي سيّدة المواقف، حيث وصل الحال بمن يجهل الحقيقة إذا حكى عنها وأُخذ بحكيه كان حكيه وكأنّه الدّليل والحجّة. ومن هنا، قد يأخذ البعض بتفسير العالم الفيزيائي ستيفن هوكنيغ مع أنّه بلا دليل، ولا شاهد علمي، سوى الاستنتاج تفسيرا.

وفي المقابل تفسير العقل والمبدأ تصحبه الدقّة في التعبير مع الأخذ بالمفاهيم الفاصلة بين المتشابهات والمتقاربات في الصّفات والخصائص.

ولأنّ التفسير العقلي نقدي؛ فهو يعتمد على البرهان المنطقي (مقدمات ونتائج صادقة)، وهو لا يقبل بتفسير المعلومات المشكوك في أمرها، ومن يقدم على تفسير المعلومات قبل أن تحلّل متغيراتها وتبلغ نتائجها فهو كمن يفسّر الماء بالماء، ومن ثمّ؛ فلا يكون التفسير إلّا عاكسا لوجهة نظر المفسّر. ولهذا؛ فالمعلومات غير قابلة للتفسير، أمّا النتائج فتفسّر. ولذا؛ فمن يفسّر المعلومات قبل أن تُخضع للتحليل فمهما بلغ من نتائج فنتائجه غير موثوقة.

ولذلك؛ فتفسير المعلومات قبل أن تحلّل متغيراتها يكون أقرب إلى التفسير الأسطوري الذي يعتمد على القصّ (الحكي) الشفوي الإغرائي مع سيطرة الخيال على الموضوع قيد الحوار أو المحاجّة، وفي المقابل التفسير العلمي يعتمد على الدّقة الموضوعيّة مع تقديم الحجج وإجراء التجارب

في الميادين الاجتماعية أو في المعامل والمختبرات، ولهذا؛ فالعلاقة بين التفكير الأسطوري والعلمي والفلسفي علاقة تضاد وتنافر وتعارض، ومن هنا فالحجج قابلة للقياس الذي يزيل الشكّ عنها[8].

تفكيك المعلومة حُجَّة:

المعلومة الحُجَّة مرنة تميل إلى الآخرين وتستدعيهم إرادة بما تحمله تجاههم من تفهُّم لظروفهم وهمومهم وما يواجههم من صعاب، وإن لم تكن المعلومة بين النّاس حُجَّة ومرونة فلن تستدعي أحدًا، وإن دعته الكلمات بغير ذلك أصبحت الكلمات مدعاة لزيادة اتخاذ المواقف حتى بلوغ التطرُّف موقفا وسلوكا. وقد يترتّب على التطرّف أن تكون هناك دموية بين الأنا والآخر، تهلك البشر والعلاقات الاجتماعية، فإن لم يتمّ استيعاب الآخرين بالحُجَّة والمرونة يصبح التطرّف متعددا فيُكوِّنُ كتلتين أو أكثر.

ولذا: فالاشتراطات في كثير من الأحيان تصدر فوقية لمن هم أسفل درجة على درجات السلَّم القيمي الهرمي؛ فهي إملاءات مانعة للاستيعاب ودافعة للتطرُّف، تطلب تنازلات ثم تطلب تقديم المزيد كلّما تمَّ قبول اشتراطٍ من اشتراطاتها، ما يخلق حالة من الجفاء لا يكون من بعدها إلا ما يقطع كلّ جذور الاتصال التي يمكن أن تتحقّق.

ففي دائرة الممكن؛ لكلّ فعل ردَّة فعل تضاده في الاتجاه وقد لا تساويه في القوّة، مما جعل التطرُّف قوّة تساوي أو لا تساوي الفعل الذي تمّ بلوغه بعد تهيّؤ واستعدادٍ وتأهُّبٍ واستخدام وسيلة مشروعة أو غير مشروعة.

[8] عقيل حسين عقيل، منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 218 – 229.

فالمعلومة تُفكَّك بالمعلومة وتُركَّب بمعطياتها الفكرية وفقا للمتغيرات المكوِّنة لها، ولأنّها معلومة فهي المركَّبة من النصِّ الحامل للفكرة التي توجّه العقل وبها يوجَّه أو يصقل عقول آخرين، وهكذا تمتد إلى النهاية التي عندها يتوقّف التطرَّف أو تكون نهايته، وبما أنَّ الابتداء لا بدَّ له أنْ ينتهي سلبا أم إيجابا، فالتفاوض والتحاور والتجادل والتناقش معطيات لفكِّ الفتيل من الاشتعال؛ فلماذا يغضّ البعض النظر ويتأخر عن فك الفتيل!

ومن يصل إلى قبول الآخر بأهداف مؤقّتة دون أن يستوعبه هو كما هو؛ فليعلم أنّ نار الانتكاسات أشدّ وأعظم، وعندما تنتكس الأمور يصبح التطرُّف أكثر تنوعا وتفرُّعا؛ مما يجعل العنف الدموي بين الأقارب والأباعد اعتدالا على كفتي الميزان.

ومع ذلك الأقوياء لا يقنطون؛ فالحلّ في دائرة الممكن وإن تعسَّرت الأمور وعظمت فهو ممكن، ويمكن أيضا أن يكون التوقف ذاتيا إذا اقتنع الأنا بما ترتَّب على أفعاله من ردود أفعال عندما يعرف أنَّه قد حاد عن الجادة في مقابل اقتناع الآخر بأنَّه قد حاد عن الجادة كما حاد الأنا عنها، أو أنّ كلّا منهما قد يئس وتعب فقدَّر جهده وإمكاناته في مقابل تقدير الآخر لذلك؛ مما يؤدِّي بهما إلى البحث عن حلٍّ بوسطاء أو بدونهم.

فبالمراجعة الذاتية والتقييم الموضوعي يمكن أن يتمّ تصحيح المسارات والاتجاهات وتصحيح النوايا وتغيير الأهداف والاستراتيجيات وتقويم الحالة إذ لا شيء مطلق إلا من عند الله، وهنا يصبح التوقّف قناعة ذاتية تتمركز على الحقِّ مراجعة.

ولذا فالمعلومات التي كان يُعتقد بأنّها مسلّمات موثوق بها في زمنٍ من الأزمان قد لا تكون كذلك في زمنٍ آخر إذا ما تمّ إخضاعها إلى قاعدة (تفكيك المعلومة بالمعلوم) وقاعدة (تركيب المعلومة بالمعلومة)، مما

يستدعي عدم التمسُّك بالأفكار والقضايا وجعلها مسلّمات مطلقة إن لم تكن من المطلق الأعظم.

ولأنَّ الحُجَّة فكرية عقلية فهي المؤثرة عندما تكون بين أيدٍ تملؤها المرونة بمستهدفات تقدير الآخر واستيعابه، مما يجعل الفكرة في حالة امتداد من عقلٍ إلى عقلٍ، وفي مقابل ذلك تتعرَّض المعلومة للانكماش والرفض عندما لا تؤسّس حُجَّة بحجّة.

ولأنّ كلّ شيء يترتّب على معطياته وسماته وأغراضه وغاياته ومستهدفاته؛ فإنَّ المعطيات تُسهم في تأسيس الحجَّة على الحجَّة، والمعلومة بالمعلومة حتى وإن رُفِضت بداية من الأنا أو من الآخر، فالحجَّة الحقّ قادرة على أن تبقى إلى أن تتمّ العودة إليها من جديد لتكون المتغيّر الرئيس في تحقيق الإزاحة إلى ما يؤدِّي إلى حلول ومعالجات وإصلاحات.

وعليه: ينبغي أن تَحلّ المعلومات الصائبة محلّ المعلومات الخاطئة، ثمّ تُدعم المعلومات الصّائبة بأخرى أكثر صوابا حتى يتمّ تثبيت القول السليم والفعل السليم والسّلوك السليم بالحُجَّة التي يحتكم النّاس بها ويحتكمون إليها.

الخوف

الخوف شعور حذري يجول في العقل تفكيرا تجاه المخيف؛ لتفاديه قبل أن يحدث أو يتحقّق، ولا يدركه إلّا عاقل يتدبّر أمره، ويفكّر في مستقبل أفضل. إنّه توقّع حذري يستوجب اتقاء ما سيقع وقد يُحدث أمرا غير مُرضيٍ ويُحقّق ألما.

الخوف ما ليس بجُبنٍ؛ فالجبن لا يكون ساكنا إلّا في نفس من يعرف الحقيقة تجاه ما يجب ولا يقدم عليه، والخوف لا يكون إلّا في دائرة المتوقّع من أجل الإقدام على، أو الانتهاء عن، دون تأخّر ولا جبن. إنّه استشعار للمستقبل واستطلاع لِما قد يَحلّ به وقد يؤثّر تأثيرا سالبا على الفرد أو الجماعة أو المجتمع وما يمتلكون، وحتّى لا يحدث تُبْذل الجهود من قِبل مستشعريه وقاية منه أو استبدالا له، أو استغناء عنه في دائرة الممكن.

ومع أنَّ معظم معلومات العامة عن الخوف هي معلومات عن سالبٍ، فإنَّ حقيقة أمره لا تربطه بسالبٍ؛ فالعامّة على سبيل المثال: يخافون من الظلمة، ولكن هل يوجد شيء من مكوّنات الظلمة يخيف؟

بالتأكيد الظلمة لا تُخيف، ولكن ما قد يفاجئك وأنت في زمن الظلمة قد يُلحق بِكَ ألما أو ضررا، ولهذا ينبغي أنْ تكون عند الظلمة حذِرا متيقّظا، وإن لم تكن كذلك فقد تفاجأ بما هو غير متوقّع، وعندها قد تحدث الخسارة، ولكن بفضل الله علينا خَلق الخوف في أنفسنا وجعله قابلا للاستشعار العقلي ليتّخذ الإنسان حذره ممّا يُخيف.

ولأنَّ الخوف موجب فكلّ عاقلٍ منّا يخاف المرض ولا يخاف الموت، ذلك لأنّ للمرض دواء؛ فكلّنا نسعى إلى بلوغه والعمل من أجل الحصول

عليه؛ فتجرى التطعيمات الوقائية للنّاس عن المرض استباقا؛ خوفا من حدوثه، أمّا الموت فلا دواء له، ولهذا لا أحد يفكّر في علاج الموت.

ولأنّ الخوف يصنع المستقبل؛ فكلّنا نسعى لتوفير الماء قبل أن يلمَّ بنا العطش، ولأنّنا نجوع؛ فنسعى لتأمين غذائنا قبل أن تلمّ بنا أزمة الغذاء وألم الجوع، ولأنّنا نخاف من الوِحدة، فنسعى جميعا من أجل تحسين علاقاتنا الاجتماعيّة مع الآخرين؛ أبوة وأخوة وعمومة وقرابة وجيرانا كراما كي لا يلمّ بنا ما يخيف، وحينها نتمكّن من بلوغ السكينة.

ولأنّنا نعرف ما تتركه السّرقة من ألم؛ فنسعى للتأمين على ما نمتلكه قبل أنْ تحدث السّرقة، ولذا فمن لم يكن خائفا فطنا سيدفع ثمن غفلته ألما.

وهكذا بأسباب الخوف من الجهل تسعى النّاس لنيل التعليم، ولذلك دائما من لا يخاف على مستقبله لا يسعى لتأمينه، ومن لم يرسم الاستراتيجيات والخطط لمستقبل أفضل فلن يجد لنفسه مكانة يتبوّؤها بين النّاس، ولن يكون له مستقبل مقدّر، بل قد يجد نفسه على الرصيف جالسا على قارعة الطريق متسوّلا، أو سجينا بين الجدران بأسباب فقدانه مشبعات الحاجة.

ولأنّ الخوف نعمة من نعم الله علينا؛ فكلّ عاقل ليس له بدٌّ إلّا أنْ يُفكّر في كلّ ما من شأنه أن يجنّبه ما يخيف. والعاقل دائما يسعى لتأمين مستقبله من الكوارث. وهكذا كلّ من يخاف من العدوان يسعى لإعداد العُدَّة قبل أن يحدث العدوان، وذلك لأجل إرهاب العدو ووضع حدّ له يقف عنده.

ولمتسائل أن يسأل:

الخوف من أجل ماذا؟

أقول:

من أجل السّلامة، ولذا فمن يحرص على الإقدام على ما يخيف من أجل التخلّص منه أو تجنُّبه بما يحقِّق السكينة والأمن، سلم. وإلّا لماذا الآباء يخافون على أبنائهم؟

بطبيعة الحال خوف الآباء على أبنائهم هو من باب الحرص عليهم وتحقيق السّلامة لهم. ولذلك فمن خاف سلم، ومن لم يخف ألقى نفسه في التهلكة.

وعليه: فالعلاقة قويّة بين الخوف والتدبُّر والتفكّر والتذكّر، أي: لماذا الإنسان العاقل ينبغي عليه أن يتدبّر أمره، ويتذكّر ماضيه، ويفكّر في مستقبله؟

أقول:

يتدبّر حاله في الزّمن الآن من أجل أن يستمدّ القوّة التي بها يتمكّن من التذكّر والتفكّر، ويتذكّر الماضي لكي يتدبّر حاضره عن بيّنة، ويعرف ما يجب أن يَقدِم عليه في مستقبله، أمّا التفكّر فلا يكون إلّا في كلّ ما من شأنه أن يحفّزه على صناعة المستقبل وبلوغ الغايات العظيمة ونيل المأمول.

وكما أنّ هناك علاقة موجبة بين الخوف والتدبّر والتفكّر والتذكّر؛ فكذلك هناك علاقة سالبة بين الخوف والوهم؛ فالوهم مجرد افتراضات لا علاقة لها بالواقّع (تخيُّل ليس إلّا)، أمّا الخوف فلا وجود له إلّا مع واقع، ولهذا فالفرق كبير بين متخيلات الوهم وما يكشفه الخوف حقيقة. فالآباء في كثيرٍ من الأحيان يرسمون صور وهميّة في أذهان أبنائهم عن المجهول

بالنسبة لهم بغرض السيطرة عليهم وجعلهم تابعين؛ فالغول الذي ليس له صورة لعدم وجوده حقيقة، صورته لم تمحَ من أذهان الكثيرين من أبناء العالم المتخلّف.

ولأنّ للخوف علاقة وثيقة مع المستقبل؛ فالنّاس تخاف من مفاجِئات الزلازل؛ فتسعى في البحث لأجل أن تتمكّن من المعرفة العلمية التي تكشف مؤشرات الزلازل قبل وقوعها تفاديا لِما قد تحدثه من كوارث، ولذا فالمهندسون وبخاصة المعماريون يبحثون عن كيفية إيجاد تصميم معماري يُسهم في تفادي الهزات الأرضية أو الحدّ ممّا تؤدّي إليه من أضرار.

ولأنّ الخوف فطري؛ فكلّ المخلوقات الحيوانية حالها كحال الإنسان تخاف فطرةً لا تعلّما؛ فالخروف بدون شكّ يخاف الذئب، والذئب يخاف الكلب، والكلب يخاف صاحبه ولا يخاف أعداءه، وهكذا الدّجاج يخاف الثعالب، والثعالب تخاف الصيادين، ولكن دون تدبّر؛ فكلّ سلوك حيواني يكون الحسم فيه أثناء المواجهة للأقوى، ممّا يجعل للمفاجأة مكانة في إلحاق المغالبة بين حيوان وآخر.

والفرق بين الخوف على المستوى العاقل والمستوى الحيواني هو: أنَّ الإنسان يخاف فيتدبّر أمره مسبقا؛ من أجل أن يتفادى المخاطر المقدّرة تقديرا بحسبان؛ فالمسلم يعلم أنّ أمامه مستقبلا بين (سكينة وألم) وله أن يختار إرادة (جنّةً أم نارا) ولهذا، فالمؤمن في حياته الدنيا يتّقي الشرور ويبتعد عن ارتكاب المظالم خوفا من النّار وحبّا في الجنّة، ولهذا فهو يُصلّي ويُزكّي ويصوم ويتّبع أمر الله ونهيه، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويسعى للإصلاح في الأرض وإعمارها وفلاحها، أمّا غيره من بني جنسه (الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم) فهم غافلون، ولهذا لم يعملوا على

صناعة مستقبلهم البعيد وهم في الحياة الدنيا، ولذا فالخوف تفادٍ للفعل المؤلم سواء أكان هذا الفعل في الحياة الدنيا أم عندما يكون مترتّبا عقابا في الحياة الآخرة على ما لم يُفعل في الحياة الدنيا، أو أنّه فُعل عن غير طاعة لما يجب أن يُفعل إرادة.

ولأنّ الخوف يُجنّب الألم؛ فالواعون في معظم الأحبان يتجنّبون لحظة الغضب بحكمة وتدبّر؛ بغرض إضاعة الفرصة على الغاضب وإعادته لرشده، ولذا فإنْ لم يتمّ تفادي الغضب لحظته تحدث المواجهة المؤلمة؛ فتتأزّم الأمور ويتصدّع البناء الأسري أو العشائري أو أيّ بناء اجتماعي وإنساني على مستوى الأفراد والجماعات وحتى الدّول.

وهكذا العالم المتقدّم دائما يَقدم على كلِّ شيء يمكن أن يُسهم في صناعة المستقبل الأفضل؛ فبالنسبة له كلّ شيء بحسابه؛ ولذا كلّ يوم نلاحظ أسعار النفط والذهب والفضة والعملات وأسعار الأسهم وما شابهها اقتصاديا تتغيّر وتتبدّل قيمها أحيانا بتعديل رؤية في سياسة منظّمة الأوبك أو تصريح من رئيسها أو تصريح من أيّ رئيس له أثر فعّال على الساحة العالمية، أو إذا وقعت كارثة طبيعية أو غير طبيعية من حروب أو حتّى تهديدات باردة ترتفع بأسبابها أحيانا جميع الأسعار عقاريّة ومالية وذهبية ونفطية وفضيّة وغيرها، وكلّ ذلك بأسباب الخوف التي تجعل الكلّ يأخذ حذره الذي به يتمكّن من تأمين مستقبله.

وعليه: النّاس يخافون في ظروف متشابهة أو ظروف مختلفة، وثمّة مخاوف تكون وهميّة لدى البعض إذا تكرّرت بانتظام في غياب مخاطر حقيقية، وهي مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بتجربة مخيفة نتج عنها رعب؛ فالذي يخاف من حيوان معيّن أو من أكثر من حيوان قد يكون هذا الخوف تأصّل في نفسه بعد أن تعرّض أو عرف وراء من تعرّض لهجوم من حيوان

معين، وهكذا لو وقع طفل في حفرة؛ فهو يخاف أيّ حفرة مشابهة، ممّا يجعله أكثر حذرا في مستقبله من أجل السّلامة، وهذا النوع من الخوف هو خوف زائد على الفطرة، لأنّه ناتج عن تجربة سبّبت أذى نفسيا أو ألما جسديّا، جعلت صاحب هذه التجربة يخاف الأشياء التي مرّت به وسبّبت له ألما أو أذى نفسيّا أو جسديّا؛ فأصبح هذا الخوف نوعا من المرض الذي يجب علاجه، أمّا الخوف الطبيعي؛ فهو خوف فطري لدى جميع البشر، وهو صفة من صفاتهم اللازمة، والذي لا يخاف يكون مريضا وجب علاجه.

إذن: الخوف صفة الخائف مثله مثل أيّ صفات أخرى يمكن أن يتّصف بها الإنسان، ومادام الخائف موصوفا بما يمكن أن يتّصف من صفات ومن ضمنها الخوف؛ فإنّ الصفة التي اتّصف بها ـ أيّة صفة ـ إمّا أن تكون صفة عارضة تزول بزوال مسببها، كاصفرار الوجه الذي يسببه المرض، أو أنّها صفة لازمة خلقية كلون البشرة والشعر والعينين، أو فطرية غريزية من الصفات الإنسانية التي تنقسم إلى مادية وإلى نفسيّة روحية، فالمادية كالشعور بالجوع والعطش تزول بزوال مسبباتها بعد الأكل والشرب وإن تكرّرت بانتهاء مشبعاتها ويكون المنبّه عليها داخليا يشغل حيزا ماديا معيّنا، وأمّا النفسيّة التي لا تنفكّ عن الجسد ولا يعرف موطنها فيه، كالشجاعة والجبن، والكرم والبخل، والخوف والأمن، فتسكن في الحيّز الإنساني فطرة غريزيّة لا يعرف موطنها، وتفترق عن الصفات المادية بأنّها تستثار وتهدأ بمثيرات خارجية وهي ملازمة في الحالين:

ـ حالة الاستثارة.

ـ حالة الهدوء.

فالكرم صفة مثل صفة الخوف؛ ذلك أنّ الذي يتّصف بها يكون كريما، ولا تظهر فيه صفة الكرم إلاّ بمثيرين اثنين:

الأوّل: من يقوم الكريم بإكرامه.

. الثاني: ما يقدّمه لمن يكرمه.

فإذا تلاشى كِلَا هذين المثيرين لهذه الصّفة أو أحدهما، فإنّ صفة الكرم تهدأ في نفسه ولا تتلاشى، وذلك إمّا لأنّه لم يجد من يكرمه، أو أنّه لا يجد شيئا يُكرم به، وبهذا تبقى الصفة قائمة في النفس لحين استحضار مثيراتها ودوافعها من الأسباب.

والخوف أقرب ما يكون إلى صفة الكرم؛ فهو ليس من الصفات المكتسبة، إذ لو كان الخوف مكتسبا لَعمِلنا جاهدين على إيجاد نقائض أسبابه بطريقة الكسب، وتخلّصنا منه إلى النهاية.

وعليه: فالخوف صفة لازمة للخائف ولغيره، وذلك أنّ الخائف تكون صفة الخوف لديه لازمة ظاهرة، وأمّا غير الخائف فإنّ صفة الخوف لديه لازمة باطنة، وهذا يعني أنّ الخوف جزء من تكوين الإنسان النفسي كونه فطريا غريزيا، ومعلوم أنّ الصفات الفطرية التي ترتبط بالجانب النفسي لها علاقة مباشرة في حياة الإنسان؛ فإن أحسن الإنسان استخدامها أدّت وظيفتها الإيجابية التي وجدت من أجلها، وإن كان غير ذلك فلا بدّ أن تكون النتائج عكسيّة.

ولما كان الخوف صفة فطرية لازمة فلا بدّ أن تتناسب هذه الصفة مع مراحل الإنسان الحياتية وتنمو مع نموّهِ بما يناسب التحذير من المخاطر التي تحدق به في كلِّ مرحلة من مراحل حياته، إذ لولا الخوف الفطري لهلك كثير من النّاس، وبخاصة الأطفال الذين لم يصلوا إلى مرحلة التمييز

العقلي، وهنا تظهر صفة الخوف نعمة ممّا أنعم الله تعالى بها على خلقه، ولذلك يكون الخوف عندهم نوعا من الحواجز التي تردعهم عن المخاطر في تلافيهم إيّاها، وكلّما كبر الإنسان كبر خوفه بنموٍّ عقله خوفا تحسبيّا، لا بمعنى الجبن والتخاذل، وإنّما بمعنى: تقدير المخاطر التي تؤدّي إلى ضرر، ومعرفة المكاسب التي تؤدّي إلى النفع، وعليه فخوف الإنسان خوفان:

1 . خوف من أن يدركه شيء.

2 . وخوف من أن يفوته شيء.

فكلّ إنسان يشغله حيّز من الخوف منذ ولادته، حيث يكمن هذا الخوف في نفسه وإن كان آمنا، كما يشغل النفس حيّز آخر من الأمن والأمان، ويدور صراع النفس مع الخوف إمّا من أجل الحصول على الأمان أو المحافظة عليه حال وجوده، ومن هنا: يجب أن يكون الخوف والأمن متوازيين لدى النفس الإنسانية، أو بعبارة أدق يجب أن يكونا متعادلين، بحيث لا تستغني عن الخوف ولا تكتفي به، كما أنّها لا تستغني عن الأمان ولا تكتفي به، ووجود الخوف الفطري المصاحب للأمان في النفس الإنسانية لا بمعنى الاصطحاب وإنّما بمعنى الكمون يعطي الإنسان فسحة للتفتيش عن الأسباب التي تهدِّيء مخاوفه حال الاستثارة من خلال إيجاد المنافذ الأمنية والاطمئنان إليها عندما تطغى على المخاوف، ولذا نرى أنّ الأمان يمنح فرصة أكبر للوقوف على مصادر الخوف، لأنّه يمنح العقل انطلاقة التفكير بما يجب وما لا يجب، ومن هنا: يكون الأمان مستثيرا للخوف في اللاوعي؛ فعندما يقف الإنسان من خلال اللاوعي على مصادر الخوف ومخاطر تلك المصادر؛ فيعود إلى وعيه ويبحث عن مثبتات الأمان من خلال خوفه، ولذلك فالنفس المطمئنة هي التي تتعادل لديها كفَّتا الأمن والخوف، الأمر الذي يمنحها الاتزان من خلال التوازن

بين الجانبين؛ فإذا طغى الأمن على الخوف كان ذلك مدعاة للإفراط في الثقة بالذات، وهنا مكمن الخطر، وإن طغى الخوف على الأمن أدّى ذلك إلى الانسحاب المفضي إلى الجبن، ولذلك لابدّ لأيّ إنسان أن يمتلك قسطا من الخوف يوازي أمنه ويحافظ عليه، ذلك أنّ هذا القسط من الخوف الذي يعتري الإنسان، يكون نواة تبلور السكينة والأمن والطمأنينة ومصدرا لها، فإذا تنكّر الإنسان لخوفه انطلقت نفسه على هواها، وهذا الانطلاق يؤدِّي إلى الانزلاق الذي لا يمكن التخلص منه إلّا بالعودة إلى الخوف استشرافا للمستقبل الآمن من أجل التخلّص من القلق والاضطراب، فإذا كان البعض يرى أنّ أزمة الإنسان في الوقت الراهن في عصرنا هي الخوف، فإنّنا نرى أنّ عدم الخوف هو أزمة أكبر لما يُحدث من مخاطر، فلو كان الخوف قائما في النفس لوجب أن يكون هذا الخوف دافعا للحصول على الأمن والسكينة والطمأنينة من وسائلها الأمنية بأسبابها الخوفية؛ فإن تغلّب الخوف على الإنسان ولم يكن خوفا متوازنا يرافقه جانب أمني، يتحوّل هذا الإنسان إلى جبان فقد اتزانه وقدرته على مواكبة الحياة، وبهذه الحال يكون قد وصل إلى مرحلة الخوف من الخوف، والذي يحلّ المشكلة برمّتها هو حسن التعامل مع الخوف ضمن دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولذا وجب على الإنسان أن يواجه خوفه مواجهة عقلية انطلاقا من واقع يستشرف المستقبل بحيث يكون الخوف دافعا للبحث عن منافذ الأمن ومسببا للطمأنينة من خلال نظرة استشرافية للمخاطر التي يمكن أن يأتي بها الخوف مستقبلا، وبهذه النظرة في طريقة التعامل مع المخاوف يكون قد سخّر خوفه خدمة لمستقبله إن علم أنّ الخوف صفة لم يتّصف بها إلّا من أجل الانطلاق نحو الأفضل.

فالخوف هو ذلك المحفّز الإيجابي للعاقل الذي يدفعه إلى التحصّن ضدّ الشرور باستدعاء مفردات الخيرات في البحث عنها وتأمين سبلها ومسبباتها؛ خوفا من سيطرة مفردات الشرّ التي تحمل الألم والضرر والأذى، وما يترتّب عليها من حزن وقهر وحرمان، تؤدّي إلى حسرة ولوعة وخسران.

ولما كان الخوف ملازما للإنسان غريزة وفطرة، فإنّه لم يكن قبله، ولم يأتِ بعده، مما يعنى أنّ صفة الخوف هي شعور يختصّ بالمستقبل؛ فيبدأ الإنسان من خلال خوفه بتحصين نفسه ضدّ المخاطر التي يدرك أنّها تؤدّي إلى الضرر أو الأذى وأحيانا تصل إلى درجة الهلاك، ومن هنا: يبدأ الفرد في تحصين الذات ضدّ أشياء يخشاها بداية أثارت مخاوفه؛ فيتحصّن ضدّ الجهل والفقر والمرض والعدو، وضدّ العطش والجوع والحرّ والبرد، وأشياء أخرى تثير مخاوف الإنسان أكثر من أن تحصى، ولو لم يكن هناك خوف من هذه الأشياء لما سعى الإنسان لتأمين مضاداتها التي تقف حائلة في وجه ما يثيره الخوف وما ينتاب الإنسان من هذه الإثارة، وبذلك يكون الخوف مدعاة لتأمين العلم والمال والدواء والقوّة، وكلّما ازداد خوف العاقل ازداد مع هذا الخوف تحسّبه لما يمكن أن يأتي من مخاطر، فيكيّف نفسه وفق المخاوف التي يتوقّعها بما يعد لها من عدّة للمواجهة، وهكذا يكون الخوف سببا للأمان والأمن والطمأنينة.

وكلّما اتسعت دائرة الإنسان اتسعت مع ذلك دائرة المخاوف التي تحدق به، إذ إنَّ الامتداد الأسري للإنسان هو امتداد لمخاوفه، ذلك أنّ خوف الأسرة أكبر من خوف الفرد؛ فالخوف على مستوى الأسرة يكون أوسع نطاقا وأبعد مدى من مجال الفرد، وبالتالي فهو دافع أكبر وأوسع

في استشراف مستقبل الأسرة وما يحيط بها من مخاطر وجب الخوف منها تفاديا لوقوعها.

وهكذا عندما تتّسع دائرة الفرد الإنسانية يتّسع معها مجال مخاوفه، وبالتالي يجب أن يتّسع مع تلك المخاوف البدائل التي تقف في وجه تحقيق أهداف الخوف، ولذا نجد أن ما تحقّقه الدولة لا يحقّقه الفرد ولا تحقّقه الأسرة، لا بمعنى الإمكانات المادية، ولكن بمعنى الإنجازات التحسيبّة الناتجة عن المخاوف ومسؤوليتها تجاه مواطنيها خوفا عليهم.

الخوف معيار التوازن:

الخوف هو الوضع الطبيعي لدى الإنسان العاقل؛ فما من عاقلٍ إلّا وللخوف في نفسه مسكن ومكمن، وهذا السكون والكمون للخوف في النفس الإنسانية صفة فطرية لازمة للمخلوق العاقل تحافظ على اتزانه بين المخيفات التي تحمل المخاطر وبين المطمئنات التي تؤدّي إلى الاستقرار، وهذا التوازن في الوضع الطبيعي للخوف الكامن في النفس يشكّل نقطة صفرية لا سالب فيها.

وعليه فالخوف عاطفة مثل بقية العواطف التي تتّصف بها النفس الإنسانية، مثلها في ذلك مثل الحبّ والرحمة، والكره والبغضاء، والفرح والسرور، والحزن والألم، وإن كان بعض العواطف مترتّبا على البعض الآخر، أو أنّ بعضها يكون مبعثا للبعض الآخر في السلب والإيجاب، ومعلوم أنّ العواطف لها مثيراتها الداخلية والخارجية، تدفعها هذه المثيرات إلى الظهور بصور شتى من الانفعالات التي تعبّر عنها الحركة والسكون في النطق والصمت، والقول والفعل، والتصرّف والسّلوك، وردود الأفعال؛ فنلمس من خلالها حالة نفسية معيّنة ترتبط آثارها بالعاطفة المثارة، ممّا

يدفع العقل إلى إشغال الفكر في البحث دائما عن الأسباب التي تعود بالنفس إلى وضعها الطبيعي: نقطة الصفر لا سالب ولا موجب.

فالذي يضحك لا يمكن أن يستمرّ ضحكه إلى ما لا نهاية، والحزين لا يستمرّ حزنه أيضا، والمسرور لا بدّ أن يقف سروره عند حدٍّ، وهذا ينسحب على الخوف الذي استنهضته المخاطر من مكمنه، وهو بدوره ينبّه العقل عليها وليس على حجمها، لأنّ تقدير حجمها والبحث عن حلول لها في المواجهة والصدام، أو التلافي والابتعاد، هو مهمة العقل كي يعود الخوف إلى مكمنه.

إنّ الإنسان العاقل يحمل خوفه في نفسه، والذي يقول إنّه لا يخاف؛ إمّا أنّه غير عاقل وهو صادق في دعواه، وإمّا أنّه عاقل فأراد أن يخفي خوفه، ولكنّه برهن على وجوده بمعرفة الخوف، لأنّه لو لم يعرف الخوف أصلا لكان سأل عنه، وما كان جوابه أنّه لا يخاف.

والذي يقول إنّه لا يخاف هو لا يفهم الخوف، ذلك أنّ الله تعالى أودع هذه العواطف في النفس الإنسانية رحمة بالإنسان من جهة، وهي من باب التقويم الأحسن من جهة ثانية، إذ لولا هذه العواطف ومن ضمنها الخوف إن لم يكن في مقدمتها، لما استقرّت حياة الإنسان، وقبل ذلك نفسه التي يقوم عليها استقرار حياته؛ فلو قال إنسان إنّه لا يخاف وقدّمنا إليه النّار، أو قدّمناه من النّار، هل سيستمرّ إلى النهاية أم أنّه سيتراجع وينسحب؟

لا شكّ أنّه سيمتنع عن الاستمرار والمواجهة، فإن لم يقل إنّه تراجع خوفا سيقول إنّه تراجع بسبب ما تحدثه النّار من أذى.

فما الذي جعله يدرك هذا الأذى الذي تحدثه النّار ويعمل على تجنّبه؟

ربما يقول قائل: إنّ العقل نبّه على خطر النّار بأنّها مؤذية ومحرقة فامتنع عنها وابتعد، ونحن إلى هنا لا نخالفه في دعواه.

ولكن ما الذي جعل العقل يتنبّه إلى ذلك الخطر؟

هنا تنحصر الإجابة في اتجاه واحد لا سبيل إلى غيره، ذلك أنّ النّار التي استثارت الخوف من النفس دفعت العقل إلى التفكير في حلٍّ للقضية؛ فأوعز العقل بالتراجع بداية، وصاحب العقل إن لم يتراجع وأقدم على النّار، فإنّ ذلك لا يعبّر عن عدم الخوف، وإنّما يعبر عن خوفٍ من مخاطر أكبر ممّا تحدثه النّار، والذي لا يتراجع عن النّار بدافع الخوف منها والتجأ إليها، إنّما هو شعور بمخاطر أعظم ممّا تحدثه النّار ظنّا منه بتقدير أقلّ الخطرين، وذلك كمن يدفعه خوفه من خطر وحش أو حيوان مفترس ويهرب أمامه من المواجهة وربّما لا يلتفت الوحش إليه؛ فإذا صادفه أثناء هروبه بئر أو حفرة عميقة فقد يلقي نفسه بتلك الحفرة، وقد يؤدّي ذلك إلى هلاكه، ولو بقي على حاله الأوّل ربمّا لا يقربه الوحش ولا يفترسه، ولو أنّه واجه تلك الحفرة دون الوحش المفترس لما ألقى نفسه بها، لأنّه يخاف من خطر الإلقاء أن تكسر يده أو رجله أو أن يهلك، ولكن الخوف الذي نبّه على الخطر دفع العقل إلى طرح البدائل والموازنة بين أنواع مخاطر المخاوف وفوّض الإرادة بتنفيذ القرار، فكان اختيار ما هو متوقّع أن يكون أقلّ خطرا بدافع الخوف، وربّما يكون أكثر خطرا وغير متوقّع بدافع الخوف أيضا.

ولو كان هذا الموقف واجه إنسانا غير عاقل على سبيل الافتراض فإنّ الخوف نفسه هو الذي يدفعه إلى تلافي المخاطر؛ فالفطرة الخوفية

التي كانت تتعامل مع العقل، انتقل تعاملها إلى الغريزة حال غياب العقل، وهنا لا يتساوى الخوف من المخاطر بين العاقل وغير العاقل، لأنّ غير العاقل حال غياب العقل يكون تأثير الخوف على نفسه أقلّ، وذلك لعدم تحفيز العقل المقدّر لحجم الخطر، وبالتالي لا تتساوى لديهما البدائل في إيجاد الحلول التي تدفع المخاطر أو تمنعها، لثبوت العقل عند الأوّل وغيابه عند الثاني، وبغياب العقل تحلّ محلّه الغريزة القائمة على ردّة الفعل؛ فتعمل على التجريب لا من أجل اكتساب تجربة وزيادة خبرة، وإنّما تجريب ظنّي بدافع الخوف الغريزي الذي حلّ محلّ الخوف الفطري المرتبط بعلاقة وطيدة مع العقل.

إنّ المعرفة التجريبية لدى غير العقلاء لا يمكن أن تكتسب، وإنّما هي محاولة قد تخطيء وقد تصيب، لأنّها بالنسبة له ظنيّة، وبالنسبة للعقلاء هي افتراضات خارج دائرة التجريب العاقلة كونها لا تمنح استدلالا يقينيا لمنبّهات الخوف الموصلة إلى النجاة. لأنّ إشارات التنبيه الخوفية تذهب بداية إلى العقل الذي يتعامل مع ما ورد إليه من معلومات يعرضها على ما اختزن في الذاكرة ليجد مضاداتها ومتوافقاتها ويعلم سالبها وموجبها، ثم يتّخذ قراره الذي يدفعه إلى الإرادة، وهذه العملية لا تتمّ إلاّ بسلامة العقل الذي يستقبل المعلومات أو الإشارات ويرسلها بعد معالجتها، ولا ينتهي دوره بعد أن يدفع بها إلى الإرادة، وإنّما يتعاظم دوره بعد ذلك في توجيه الإرادة أيضا؛ فغير العاقل إن كانت أعصابه من خطوط الاستقبال والتوجيه التي تتسلم الإشارات والمعلومات سليمة؛ فإنّ ذلك لا يغني عنه شيئا بغياب العقل؛ فالمنبهات على الخوف وإن أثّرت على الأعصاب فهي إمّا أنَّها لا توصل الإحساس إلى الدماغ، أو أنّ الدماغ لا يتعامل معها لغياب العقل، وهنا يفقد غير العاقل التوجيه المركزي في التعامل مع

مخاطر الخوف ويلجأ بالغريزة إلى الاستثناء القائم على ردّة الفعل ما يترتّب عليه غياب تقدير النتائج وذلك أنّه:

. فقد القرار السليم الذي كان يتّخذه العقل في قياس حجم المخاطر أوّلا، ومن ثمّ طرح البدائل والحلول التي تواجه الحدث.

. فقد الإرادة التي كانت تبعث في الأعصاب ما تبعثه المؤثّرات في التعامل مع الحدث لحظة استنهاض الخوف للمخاطر، وكيفية التعامل معها بعد تلقي القرار من العقل وتفويضها في التعامل مع المخاطر.

الخوف نقطة الانطلاق الموجبة:

لما كان الخوف من العواطف اللازمة للإنسان ويسكن في نفسه؛ فكان ذلك مؤشّر النقطة الصفرية، وهذا الخوف كامن في النفس عند نقطة الصفر التي يمكن أن نعتبرها بداية الموجب كون الصّفر يدخل ضمن الأعداد، وهذا يعني أنّ وجود الخوف في نقطة الصفر هو بحدِّ ذاته موجب لوجوده.

إنّ الخوف يجعل النفس الإنسانية والإنسان بكلّيته عند استثارة المخاطر للخوف في نفسه يتأرجح بين السالب والموجب إلى أن يتمّ الاختيار من العقل ودفع القرار إلى الإرادة؛ فإن اتجهت الإرادة إلى التوجس والحذر والخشية؛ فتكون قد سلكت مسلكا موجبا انطلاقا من الصّفر صاعدا، وإن اتجهت إلى التخاذل والجبن، فقد نحت منحىً سالبا انطلاقا من الصفر نزولا، وسنتناول المنطلقات الصفرية للخوف حتى نقف على الفوارق بينها وعلاقتها به؛ موجبها وسالبها.

التوجس: الوجس: الصوت الخفي والتوجس: التسمّع، والإيجاس: وجود ذلك في النفس، والخيفة: هي أدنى درجات الخوف، وهي الحالة

التي عليها الإنسان تعادل الوجس وتساويه، فهل يكون الوجس مدخلا للخوف أم مفتاحا للطمأنينة؟

الوجس لا يكون بداعي الخوف المنبّه على المخاطر، وإنّما بحسابات فوت ما يرجو المتوجس من تحقيقه بما يداخله من حديث النفس، وينقسم الوجس إلى قسمين:

الأوّل: خارجي وهو أقرب ما يكون إلى استراق السمع بداعي الاطلاع أو المحبة أو المعرفة دون أن يطّلع على المتوجس أحد.

الثاني: حسابات ذاتية بين العقل والنفس على التناوب، تنتاب الإنسان عندما يريد أن يقدم على عمل يأمل تحقيقه بتوجسه منه وإن صاحب ذلك شيء من الرهبة لا ترقى إلى الخوف ولا تدفع إلى الاضطراب.

فهذه التوجسات نوع من الهواجس تميل بالنفس إلى الاطمئنان أكثر منها إلى الاضطراب على عكس الوساوس التي تشرّع الأبواب لما يؤدّي إلى الجبن.

والوجس هو أدنى درجات الخوف، والخوف اسم التكبير، ويُصغّر على خُوَيف، وأصغر من خُوَيف يأتي خيفة، ولذا فإنّ الوجس في القرآن الكريم جاء مصاحبا لأدنى درجة من الخوف:

قال تعالى: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى}[9].

[9]. طه 67، 68.

قال تعالى: {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ}[10].

قال تعالى: {فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ}[11].

فأوجس في نفسه خيفة موسى، هنا يبدو أنّ الوجس إذا تعاظم ربّما يؤدّي إلى الخوف، لذلك خاطبه الله تعالى بقوله: (لا تخف إنّك أنت الأعلى)، فلمّا أوجس في نفسه خيفة جاءته البشرى من الله تعالى؛ فإيجاس موسى لم يكن خوفا ولن يرقى إليه، بدليل أنّ كلّ ما يترتّب على الوجس تكون نتيجته مرضية، لأنّ إثارة شعور التوجس تفتح مغاليق الطمأنينة، فكان أن بشّره الله تعالى بعد توجّسه بأنّه سيعلو على فرعون، وإبراهيم صلى الله عليه وسلّم عندما أوجس من الملائكة نفوا عنه الخوف وبشّروه بغلام عليم.

وفي الآية الأخرى عندما قدّم إبراهيم طعاما لضيوف امتنعوا عن الطعام (فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ)، وهنا يتجلّى معنى الوجس بأوضح صوره: إذ إنّ الضيف الذي يأتي وبخاصة في ذلك العصر، إنّما قادم من سفر بعيد، وغريب أوّل ما يقدّم له الطعام والشراب؛ فعندما امتنعوا عنه أوجس منهم خيفة عدم فهم مرادهم في القضية التي جاؤوا من أجلها، وتوجّسه صلى الله عليه وسلّم كان حديثا بينه وبين نفسه، وتساؤلات عمّا يريدونه، ولكن عندما أخبروه بأنّهم قد أُرسلوا إلى قوم لوط علم حقيقتهم فانتهى توجّسه بالوقوف على مبتغاهم.

---

[10] – الذاريات 28.

[11] – هود 70

وعلى هذا؛ فالتوجّس شعور ينتاب المتوجّس يدفعه إلى البحث عن حلّ للقضية المتوجس منها ليس بدافع الخوف، وإنّما بدافع المعرفة من الذات وليس من الموضوع، لأنّ التوجس قائم على حوار بين المشاعر النفسية وإجابات العقل عنها.

الحذر: لا يمكن أن يكون الحذر خوفا كما جاءت به المعاجم اللغوية، والذي نراه أنّ الحذر شعور هو أقرب إلى التوجّس، ولكن يفترق عنه بأنّ التوجّس يكون في الذات، بينما الحذر يكون من الموضوع أو من عامل خارجي قبل وقوع الخوف، وهو تنبّه في أخذ الحيطة كي لا يقع الخوف مصداقا لقوله تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ}[12].

إنّ القتل الذي كان يمارسه فرعون بحقّ المواليد الذكور من بني إسرائيل لم يكن خوفا منهم، ولو كان خائفا وقتها ما استطاع أن يقتل من قتل من المواليد الذكور، وهذا القتل الذي كان يجريه عليهم إنّما هو حذر في أخذ الاستعداد والحيطة كي لا يقع خوفه منهم، ولذا الآية بهذه الصيغة في النصّ؛ ذلك أنّ الحذر هو احتراز من مخيف، ليس من الخوف وإنّما أتى الحذر قبل وقوع الخوف.

إنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا يحذرون جميع المواليد الذكور لا عن علم بهم ولا عن دراية، ولكن الذي يعلمونه أنّ مولودا بعينه من هؤلاء ستكون نهاية فرعون على يديه، فدفعهم الحذر إلى قطع الطريق على الخوف الذي سيأتي لاحقا بدليل قوله تعالى: (وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) وحذرهم هذا من المولود الذي سيأتي

[12] – القصص 5، 6.

معه الخوف، إذن: فالخوف أمر يقع بالمواجهة، والحذر هو احتياط لأمر كي لا يقع بالمواجهة.

الخشية: الخشية وإن وردت في معاجم كثيرة بمعنى: الخوف، فإنَّ سياق نظم الكلام نادرا ما يأتي بهذا المعنى، ولذا فإنّ لها أكثر من معنى حسب سياق الكلام مثل الرجاء والكره، فقد جاء في مختار الصحاح قول الشاعر:

ولقد خشيت بأنّ من تبع الهدى سكن الجنان مع النبي محمدِ[13]

وهي بهذا المفهوم لا تدلّ إلّا على الرجاء، فلو كان الخوف هو الخشية ما اجتمعا في آية واحدة للدلالة على مفهوم واحد في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ}[14].

فلو كانت الخشية خوفا لكان الكلام (يخافون ربّهم ويخافون سوء الحساب) ولو كان الخوف خشية لكان الكلام (وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ).

ولكن لما كان لكلّ كلمة معناها في مفهومها الدلالي اجتمع الخشية والخوف ليؤدّي كلٌّ منهما مفهومه ودلالته فيما أُريد له من مضمون؛ فكان الرجاء من الله تعالى، والخوف من سوء الحساب، ولا معنى لمفهوم: يخافون ربّهم ويخافون سوء الحساب لضعف التركيب وركاكة اللفظ.

---

[13] – مختار الصحاح ج1، ص196.

[14] – الرعد 21.

وأمّا قوله تعالى: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا}[15]، فهو أبعد ما يكون عن الخوف لما يأتي:

أ ـ لو كان العبد الصالح خائفا من الله تعالى في هذا الموضع ما كان ليقتله.

ب ـ لو كان خائفا من الغلام ما تجرّأ على قتله.

ج ـ لو كان خائفا ما أدخل موسى صلى الله عليه وسلّم في هذا الخوف؛ لأنّ موسى لم يصرّح له بأنّه خائف أم لا، إذ قال (فَخَشِينَا) وأدخل موسى في الخشية.

إنّ فلسفة اللغة ليست بمعاني ألفاظها، وإنّما بدلالة مفاهيمها على تلك المعاني بما تحمل من مضامين، فإذا انتفى الخوف عن العبد الصالح وعن موسى في مواضع احتمال الخوف لم يبقَ للخشية هنا إلّا مفهوم واحد من الدلالة، وهو:(الكره).

ولو أعدنا صياغة معنى الكلام من مفهوم الآية في مثالين من مضمون الآية على مفهوم الخشية في هذا الموضع وفق هذا السياق لتوضيح المفهوم بعبارتين نستبدله بالخوف مرة وبالكره مرة أخرى مكان الخشية، سنقف على حقيقة المفهوم فنقول:

1 ـ فخفنا أن يرهقهما طغيانا وكفرا.

2 ـ فكرهنا أن يرهقهما طغيانا وكفرا.

فأيّ العبارتين أقرب للخشية وأدلّ على مفهومها؟

---

[15] – الكهف 80.

وتأتي بمعنى العلم والمعرفة في مواطن التخصيص كقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}[16].

ومثل هذا جواب هارون لموسى صلّى الله عليهما وسلّم حين قال: {إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}[17].

من الملاحظ في قوله تعالى:(ألم ترَ) إنَّه خطاب للعموم، ثمّ ذكر بعد ذلك آيات الدلالة على الخلق والقدرة والعظمة، وليس كلّ أحد يدرك هذا، ولما كان ذلك كذلك، حوّل خطاب العموم إلى إدراك الخصوص الذين يعرفون هذا ويعلمونه، فجاء بأداة الحصر(إنّما) التي قصرت الخشية على العلماء لعلمهم ومعرفتهم بما ضرب الله به المثل من آيات الخلق الدالة على قدرته، وبالتالي فأهل الخصوص بعلمهم ومعرفتهم (خشيتهم لله) يبيّنون ذلك للعموم من خلال الخشية.

ومفهوم الخشية الذي يدلّ على العلم ورد في أكثر من موضع في القرآن الكريم، ولاسيما أنّها عندما ترتبط بالتذكير، منها قوله تعالى: {طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى}[18].

وقوله تعالى: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}[19].

---

[16] – فاطر 27، 28.

[17] – طه 94.

[18] . طه 1 . 3

[19] – طه 44.

وقوله تعالى: {فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى}[20].

فالتذكير لا يكون إلّا لمن عنده معلومة سابقة كان قد نسيها، فتأتي الخشية التي اختزنها في ذاكرته؛ فتذكره بها، لأنّ التذكير لا يكون للخائف، وإنّما للعارف.

وسبب اختلاط مفهوم الخوف بالخشية على ما نعتقد، هو: اللبس الذي يحصل لدى الكثيرين بين الذات والفعل المخيف الذي يصدر عنها، فالخشية تكون للذات، والخوف يكون ممّا يمكن أن يصدر عنها من فعل كما قال موسى صلّى الله عليه وسلّم: {وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ}[21].

إنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم لم يكن خائفا من فرعون وملئه، وإنّما من فعل القتل الذي سيصدر عنهم.

ولذا؛ فالخوف يرتبط بالفعل الذي يصدر عن الذات، والخشية تكون من الذات نفسها كما قال تعالى: {إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً}[22].

التخاذل: التخاذل من الصفات غير الحميدة؛ فقد يرتبط بالخوف حينا وترتبط بالإرادة حينا آخر، والتخاذل هو عدم فعل ما يجب أن يفعل في الموقف الذي يجب فيه ممارسة الفضيلة أو إظهارها، ويكون ذلك في مواطن نصرة الحقّ وإظهار العدل أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر وما إلى ذلك من إظهار الفضائل أو ممارستها؛ فالذي لا يفعل ما يجب أن يُفعل فقد ركب من التخاذل مركبا قلّ ذلك أم كثر، قد يكون بإرادة

---

[20] – الأعلى 9، 10.

[21] – الشعراء 14.

[22] – النساء 77.

وليس خوفا مباشرا، ونقصد بغير المباشر ما يظنّه المتخاذل خوفا من وقوع خوف يترتّب عليه خطر؛ فيتّخذ من ذلك موقفا؛ ولذلك نهى الله تعالى عن هذا النوع المرتبط بالإرادة بأسلوب الاستفهام الإنكاري الذي يفترض أن لا يكون، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ}[23].

فهنا لم يكن التثاقل في عدم النهوض إلى الجهاد في سبيل الله خوفا مباشرا من المواجهة في القتال، لأنّها مرحلة لم يصلوا إليها بعد، وإنّما كان التنبيه على التخاذل خوف ترك ملذّات الحياة الدنيا، بدليل ذكر المتاع الذي يتمتّع به الإنسان؛ فالخوف الذي يؤدّي إلى التخاذل في هذا الموقف لم يكن خوفا من الشيء، وإنّما خوف على فوات الشيء وتركه، بحيث إنّهم لم يصلوا إلى مرحلة الخوف من الشيء.

إنّ الذي يريد أن يقف على المفهوم، لا بدّ من معرفته الأدوات والوسائل التي تؤدّي المفاهيم، واللغة هي الأداة التي توصل المفهوم إلى دلالة معناه، فمن المعلوم أنّ بعض الخطاب اللغوي يشمل الجميع في التلقي مع استثناء البعض من الحكم، وهذا واضح جلي في النصوص القرآنية وغيرها من النصوص مصداقا لقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[24].

فهناك من المؤمنين من يكون رزقه على قدر حاجته أو أقل من حاجته، فهل دخل في تلقي الخطاب؟

---

[23] – التوبة 38.

[24] – البقرة 254.

نقول: إنّه دخل الخطاب وخرج من الحكم، وبالتالي فقد خرج من التخاذل إذ إنَّ الخطاب وإن كان عاما فإنّ حكمه مخصوص على المقتدر.

وقد يأتي الخطاب على عموم العموم تلقيا وحكما، ومن يخرج عنه فقد دخل في التخاذل، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصّلاة إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[25]. فالصّلاة هنا غير الصّلاة المفروضة، وإنّما هي صلاة تطوّع من أجل الاستعانة بها على الشدائد في تثبيت الصبر؛ فمن ترك ذلك وقت الشدّة فقد دخل في التخاذل عن أمر كان وجوب الأخذ به أولى.

وقد يأتي الخطاب مخصوصا في الحكم، ويُدخل العموم في التلقي لدفع التخاذل بالخصوص عن العموم، والعموم داخل في الحكم وإن لم ينصّ عليه الخطاب مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}[26]، فما كان للذين لم يتخلفوا من الأعراب وغيرهم، أن يتخلفوا في المرات القادمة كونهم لم يخاطبوا بما خُوطب به المخلفون، وإنّما هم داخلون في الحكم قطعا وإن لم يردْ ذكرهم.

وعليه: فإنّ اللغة تخاطب الجزء بالكلّ، وتخرج البعض من الحكم، وتخاطب الكلّ وتدخل البعض في الحكم، وتخاطب العموم بعموم الخطاب والحكم؛ فيكون شاملا.

الجبن: الجبن تنبيه سالب من الخوف على عدم الإقدام على الفعل، أيّا كان هذا الفعل، في النجدة والمروءة، أم في البيع والشراء، أم في الحرب

---

[25] – البقرة 153.

[26] – الفتح 16.

والقتال، أم في الجدال والخصام، بحيث يستنهض الخوف من النفس الإنسانية أدنى درجة من الانهزام وعدم مواجهة المواقف، سواء أكان الجبان منفردا أم معه صحبة ليلا أم نهارا، لما تظنّه نفسه أنّه يترتّب على الموقف الذي يفترض أن يكون مخاطر تؤدّي إلى التهلكة وقد يكون الأمر ليس كذلك.

فهذه القضية مرتبطة بالجانب النفسي الذي فرض نفسه على العقل بطغيان العاطفة التي تصوّر للنفس أشياء غير واقعية وأحيانا غير منطقية، وتبدأ النفس بتحويل هذه التصوّرات إلى إشارات معلوماتية مصدرها التهيؤات النفسية الإنسانية وتخيلاتها؛ فتزوّد العقل بمعلومات خاطئة عن حقائق طبيعية نتيجة اضطراب نفسي يجيّش العاطفة بحيث تطغى العاطفة على العقل، فينصاع العقل إلى روافد النفس بما تحمل من معلومات يختزنها العقل في الذاكرة، ويتخذ قراراته بناء على تلك المعلومات السلبيّة؛ فتكون النتيجة الطبيعية أن تنصاع الإرادة للأوامر والقرارات العقلية في اتخاذ الموقف القائم على الحكم النفسي وليس على الاستنتاج العقلي.

إنّ الوضع الطبيعي الذي يفترض أن تكون عليه النفس هو تقبل الواقع والتعامل معه وفق المساعدات العقلية السليمة في مواجهة حقائق الأمور خيرها وشرّها ونفعها وضرّها، ذلك أن كلّ أمر من الأمور له أدواته الخاصة به في التعامل من النفس والعقل والجوارح، وعندما تكون النفس مطمئنة والعقل سليما فإنّ الإنسان يتعامل مع المخاطر التي ينبّه عليها الخوف في هدوء وسكينة وارتياح وطمأنينة، ولا يقف أثرها عند هذا الحدّ لدى البعض، بل ربّما تمدّه بقوّة إضافية تدفعه إلى الأمام وتحول بينه وبين الانسحاب؛ فتجعله يكرّ ولا يفرّ، يقدم ولا يحجم، بحيث لا يبالي أوقع على الخطر أم وقع الخطر عليه، وهنا ينصرف العقل باطمئنان النفس إلى الطريقة والأسلوب والأداة التي يتعامل بها مع الخطر، غير أنّ الانسحاب

المفضي إلى الجبن بتنبيه الخوف السالب القائم على انعكاسات نفسية سلبية، يؤدّي إلى الانسحاب والهزيمة أمام الخطر الداهم، وهذا ما نجده عند قوم موسى صلّى الله عليه وسلّم عندما دعاهم إلى دخول الأرض المقدسة فقال لهم: {يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ}[27]

إنّ موسى عليه الصّلاة والسّلام يعلم أنّ الجبن متمكّن في نفوسهم، ولذلك أراد أن ينتزعه من نفوسهم قبل أن يسمع جوابهم بدليل قوله (وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)، ومع ذلك فقد صدّقوا موسى بظنّه بهم أنّ هذه الأرض فيها قوم جبّارون؛ فهذا الجواب ينمّ عن نفسية منهارة سكنها الجبن عن طريق السماع وليس من قبيل التجربة، ومع العلم أنّ رجلين منهم يخافان الله أوضحا لهم سبل المسالك التي تفضي بهم إلى تجاوز الخوف السالب وتحويله عن طريق الأسباب إلى خوف موجب، لم يدفعهم ذلك إلى إطاعة موسى صلّى الله عليه وسلّم، وخوف الرجلين يختلف تماما عن خوف بقية قوم موسى مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[28].

فهذان اللذان يخافان الله قد أنعم الله عليهما بهذا الخوف الموجب الذي يفترض أن يكون قائما في نفوسهم جميعا، إلّا أنّ خوفهم من الجبّارين جعل الجبن يتمكن منهم؛ فدفعهم إلى الانسحاب والهزيمة

---

[27] – المائدة 21، 22.

[28] – المائدة 23.

والعصيان، ولم يلتفتوا إلى نصيحة الرّجلين، ولم يناقشوهما، لأنّه ليس لديهم أدنى استعداد للموقف بسبب الجبن الذي يتملّكهم؛ لذلك أرادوا أن يصرفوا أنفسهم عن هذا الأمر وعدم الخوض فيه: {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}[29].

فهذا التأبيد الذي تمسّكوا به تُجاه خالقهم وتُجاه نبيّهم بما قذف الخوف من جبن في قلوبهم، كان سببا في أن تكون الأرض المقدسة محرّمة عليهم، ويتيهوا في الأرض أربعين سنة نتيجة لذلك.

إنّ الرّجلين من الذين يخافون قد أنعم الله عليهما، وهذه النعمة لا بدّ أنّ سببها التقوى؛ فكان خوفهما مختلفا؛ وبعبارة أدقّ أنّ منبّهات خوفهما كانت مغايرة لمنبّهات الخوف عند قومهما، ولذا فكلّ ينظر إلى منبّهات خوفه وعمل على تلافي خطرها، فكان التلازم والترابط بين التقوى والخوف من الله، أمّا بقيّة القوم فلم يتزودوا بزاد التقوى؛ فكان خوفهم من مخاطر الجبّارين، ولذا فإنّ هذا النوع من الخوف المفضي إلى الجبن يترتّب عليه أشياء أخرى من الألم النفسي الذي ينتج عنه الهم والحزن الذي يؤدّي إلى اضطرابات نفسية، حيث إنّ نسبة كبيرة من أسباب الأمراض الخطيرة ترجع إلى القلق النفسي والهموم والأحزان التي يسببها الخوف السلبي، والجبن يترتّب عليه عجز وكسل يؤدّيان إلى زيادة الهم والحزن، ثم إنّ الجبن يترتّب عليه مضارّ كثيرة؛ فالجبان مترقبّ لا يهدأ باله ولا تسكن نفسه، لأنّه يخاف من نفسه ويخاف على نفسه، ويعيش في الخوف الذي يصبح له كابوسا يطارده، فيحدث له الهمّ والحزن، وكذلك الجبن في الإنفاق؛ إذ إنّ الذي يُمسك ماله لخوفه عليه من الضياع

[29] – المائدة 24.

والهلاك تراه فقيرا، فإذا أنفق شيئًا أو أجبر عليه؛ فقد تلزمه الهموم ويتراكم عليه الخوف، ولذا نرى كثيرا من النّاس فقراء خوف الفقر وهم أصحاب مال وما ذلك إلاّ خشية الإنفاق.

إنّ الجبن شرّ ما يتّصف به الإنسان من صفة يدفعه خوفه إلى التمسّك به، ولذا فإنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم كان يكثر من الاستعاذة بالله تعالى من هذه الصفة لما يترتّب عليها من مضارّ، مصداقا لقوله صلّى الله عليه وسلّم: "اللهمّ إنّي أعوذ بك من الهمّ والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال"[30]، وعليه لو كان للخوف شيء من هذه الصفات لكان الرسول عليه الصّلاة والسّلام قد استعاذ منه كما استعاذ من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل[31].

استنهاض الخوف صناعة مستقبل:

يكمن الخوف في النفس الإنسانية، لكن هذا الكمون لا يكون مستديما أو حالة تكون أشبه بالمكوث الذي لا يرى بزوغه أبدا، ذلك أنَّ المثيرات الخارجية تسعى دائما إلى يقظته في تشكيلات متعددة ومتنوّعة، فيكون ظهور الخوف ضمن حالة متفاوتة بحسب المثير الذي يستفزّه، هذا الأمر يكون تحقّقه ضمن آنيّة مفترضة يكون حصولها بعد امتدادات واضحة المعالم، يُرى فيها كلّ التمركزات المطلوبة، والتي يكون من بعدها التوجّه العلاجي قائما من خلال مثول الخوف وراء كلّ ما يحصل.

إنَّ هذا الانفتاح في المعالجة قائم على آنيّة تكون محدّدة الحدود واضحة التفاصيل، ومن الممكن الوقوف على كلِّ ما من شأنه أن يكون

---

[30] – مسند أحمد، ج26، ص484.

[31] عقيل حسين عقيل الخوف وآفاق المستقبل، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، ص 23 – 74.

الحلّ فيه ظاهرا، سواء أكان ماديا أم معنويًّا؛ فتكون المعالجة سريعة، لكنّها لا تخلو من أخطاء متفاوتة قد تكون قليلة في بعض الأحيان، إلّا أنَّها قد تتّسع في أحيان أخرى لتصل الأمور في بعضها إلى وجود خروقات غير منطقية، تجعل الكثير من الحلول في المستقبل في مهبّ الريح، هذه الآنيّة أسهمت بشكل أو بآخر في استنهاض الخوف من خلال رسم حجم المخاطر وتبيان ما فيها من تفصيلات تعينه على إيجاد حلول يكون من خلالها الوصول إلى نقاط التقاء فعلية تكسب الزمن أوّلا، وتخرج الوضع الحرج أو الخطر إلى وضع آخر أفضل ثانيا، إلّا أنَّ الوضع الأفضل يكون وفق مقاييس غير ثابتة، إذ تكون هذه المقاييس تابعة إلى مجمل العوامل التي التفّت حول الخوف، ومنحته هذا الاستنهاض الذي كان سببا فاعلا في الوصول إلى النتيجة الحالية التي هي في كلّ الأحوال منقادة للبداية الأولى التي كانت قاعدة الانطلاق.

يسير الخوف باتجاهات واضحة المعالم حين يكون الاستنهاض مبنيًّا على أسس علمية، تتّسع مراحلها نحو إيجاد توافقات بين الحدود المفتوحة التي لا يُرى فيها في كثير من الأحيان إلاّ ابتعادٌ عن المركز المفترض، هذا المركز يكون من خلاله طرح ما يمكن طرحه وإعداد ما يمكن إعداده، ولهذا لا تكون البداية مفتعلة بأيِّ حال من الأحوال، لأنَّ الافتعال لا يولِّد في المستقبل إلّا أخطاء جسيمة، ونحن إذ نرى في البداية أنّها يجب أن تكون مبنية على اتساعات علمية مختلفة تلملم المطروح وتدخله في سياقات حقيقية وافتراضية، فتمنحه بذلك مديات متباينة يكون على أساسها الوصول إلى الاتكاءات التي يكون من ورائها الوقوف على الحلّ، والذي يكون من ورائه تفادي المخاطر التي يمكن أن تحدق بالإنسان.

إنّ السير خلف طروحات ثابتة يجعل من استنهاض الخوف أداة ناقصة الفاعلية، ذلك أن التغيُّر المستمر في الحياة يخلق حالة من التصحيح المستمر لكلِّ ثوابت الحياة، وهذا بطبيعة الحلّ يوجد ارتماءات متعددة تحاول أن تجد لها ما يكفل بقاءها ضمن دائرة الاستنهاض؛ فتكون الأمور ضمن هذه النسقية باطلة وغير قابلة لردع المخاطر؛ فتقلبات الحياة جعلت الكثير من الأمور تكون ضمن انزواءات لم يتوقّع لها أن تكون فيها؛ فكانت وجودا غير مرغوب فيه في كثير من المواقف، وهنا تنبري الأمور ضمن استمدادية جديدة؛ فتحاول أن تجد ما يمنحها صيرورة البقاء ضمن دوائر جديدة تسهم من خلالها في إيجاد حلول واضحة، وإن كانت استعراضية، إلّا أنَّها ملبية لبعض الإرهاصات الحاصلة التي تبدو غير خطرة.

وتتحدّد الحياة من خلال تقسيم يطرح كلّ ما من شأنه أن يكون سببا في استنهاض الخوف، ذلك أنَّ المخاطر أصبحت ضمن مدارك الإنسان المختلفة؛ فيلتفَّ حولها استشعارات متباينة تكون حافلة بأسباب البحث عن كلِّ النقاط التي يكون من ورائها الوقوف على الصورة الافتراضية التي ستكون في المستقبل، وهذا يشمل ما يسمى صناعة المستقبل؛ فالمستقبل في حقيقته غير متحقّق، إلّا أنّه يمكن أن يتحقّق من خلال رسمه بتقنية خاضعة لكلِّ ما يساهم في تحقّقه، وفي هذا المقام يتراءى لنا مصطلح المستحيل الذي يمكن أن يكون باعثا لتوقفات كبيرة يكون من بعدها تحقّق المخاطر، ومن ثمَّ الانزواء عن إيجاد حلول تكون ناجعة في كلّ المقاييس، ولكي نبدِّد هذا المصطلح ولو آنيًّا علينًّا أن نلجأ إلى المتوقّع وغير المتوقّع كي نسلب منهما الحلول التي يمكن أن تكون باعثة على إيجاد أرضية صلبة وواضحة المعالم، ويكون من ورائها خلق

استنهاض للخوف يكون من ورائه صناعة المستقبل بالكيفية المفترضة والمرادة.

المتوقّع يسير في دائرة المتحقّق الذي يكون وجوده وصداه حاضرا في المنظور وغيره، وهذا بطبيعته يخلق حالة واضحة من وجود ثوابت يكون حضورها ممثّلا لجانب مهم من جوانب صناعة المستقبل؛ فيكون هذا الحضور استمرارا لهذه الصناعة حتى يمكن القول إنَّها تدخل حقل البديهيات التي يكون وجودها لا بديل عنه.

أمَّا غير المتوقّع فيكون خاضعا لنظرة استشرافية باحثة عن كلّ ما من شأنه أن يكون مؤسّسا بطريقة أو بأخرى لصناعة مستقبل مطلوب وفي المواصفات الافتراضية التي وضعت عند بداية الاستنهاض، ولعلَّ البداية قد تكون مفتعلة في بعض جوانبها نتيجة التحسُّب المبالغ فيه إلّا أنَّه بمرور الزمن قد يكون هذا الافتعال ممثّلا لكثير من الوقائع التي يمكن أن يكون لها شأنٌ آخر، فلا يكون هناك استبعاد لأيِّ استنهاض وإن كان بعيدا عن السمات المتواجدة ضمن الدائرة الظنيّة الحاضرة في كلِّ حركة متّجهة نحو الاستنهاض.

عليه: يكون استنهاض الخوف باعثا لإيجاد قواعد جديدة تكون ملبِّية لما يمكن أن يكون بديلا عن الماضي، ودون الركون إلى كلِّ ما من شأنه أن يلغي التوجّه نحو المستقبل بافتراضات بالية وعقيمة لم تنتج إلّا ما يُعطّل الحياة ويجعلها تمرّ بأزمات متوالية.

إنَّ الحياة في كثير من تفاصيلها مبنيّة على استنهاض الخوف لصناعة مستقبل يكمن فيه الأمان المطلوب في كلِّ جوانبه؛ فمن ذلك نجد أنَّ المقررات التعليمية إن لم تكن مصوغة بمنهجية استنهاض الخوف لدى المعلمين والمتعلمين؛ فإنَّها ستفشل في تحقيق الغايات المرجوة لصناعة

المستقبل، فإعداد كمّ من المعلومات الملبّية لاستنهاض الخوف يكون موافقا لما يمكن أن يكون منجزا مستقبليا، فالمقررات إنْ لم يراع في صياغتها استنهاض الخوف في أنفس المتعلمين لا يمكن لهؤلاء المتعلمين صناعة المستقبل المأمول منهم، حتى يكونوا من المواكبين لحركات التغيّر والتقدّم التي هي دائما في حالة تطوّر من عصر إلى عصر.

ولذا، فإنَّ الخوف من أعظم النعم التي تحفِّز الإنسان وتدفعه إلى كلّ ما من شأنه أن يجنِّبه المخاطر والآلام والمظالم، ويجنِّبه الحاجة والعوز، ويُمكِّنه من بلوغ مشبعاتها والإقدام على تطورها وتطويرها، حتى المناهج التي رأينا فيها أن تكون ملبِّية لاستنهاض الخوف، هي متغيِّرة ومتبدِّلة، لأنَّ الخوف أيضا متغيّر ومتبدّل، وهنا يكون النّاس ضمن اتجاهين:

الاتجاه الأوّل: يكون منهم متتبِّعا لكلّ ما يسهم في استنهاض الخوف من أجل صناعة المستقبل المأمول؛ فتكون حركتهم واعية وتسير في مدارات تلبّي ما يطمحون إلى الوصول إليه؛ فتكون أدواتهم خاضعة لكلّ ما يصل بهم إلى التحقُّق المراد، حتى ردود أفعالهم تكون منتمية إلى أرضية واقعية التشكيل، فتمنحهم بعد ذلك حلولا صحيحة كما يريدونها في كثير من الأحيان.

الاتجاه الثاني: المتفرجون الذين يراقبون كلّ ما يجري، فلا يحركون ساكنا وسيظلون يتفرجون ما لم يعرفوا عن يقين أنّ استنهاض الخوف ضرورة للفرد والجماعة والمجتمع، هذه المعرفة لا تأتي من فراغ، بل يكون السعي من أجل معرفتها مطلبا مهما يمنحهم فيما بعد هذا المطلب نتائج غير متوقّعة على الأصعدة كافّة التي كان ينظر إليها أنَّها غير مهمة.

إذن: من يستنهض الخوف في نفسه يتقدّم ويتطوّر حتى يصل به الأمر إلى أن يغزو الفضاء ويُحدث النُّقلة لما هو أعظم، وفي المستقبل أيضا

سيغزو ما لم نعرفه الآن في دائرة غير المتوقّع، ولهذا من يعلم بذلك لن يُفاجأ، أمَّا الذين لا يعلمون فبالضرورة ستكون المفاجأة في أنفسهم عظيمة ويا ليتها تكون موجودة.

الخلاف

الخلاف فعل مواجهة مترتّب على تضاد في الرؤى والمواقف والمصالح المشتركة؛ إذ لا مكان فيه للموضوعية بين المتخالفين.

والخلاف كلمة جاءت من المخالفة، والمخالفة خروج عن المتّفق عليه، أو خروج عمّا يجب الاتفاق عليه، والمخالف من خالف العرف، أو الدّين، أو القيم والأخلاق، أو الدستور المشرّع به من قِبل النّاس، أو خالفها جميعا؛ فخالف أصحابها، ومن ثمّ جعل من نفسه خصما في المواجهة.

ولأنّ أمر الخلاف بغير حقّ أمر يؤدِّي إلى المواجهة والرّفض؛ فلا شكّ أن النِّزاع، والشِّقاق، والخِصام، والصِّدام بين الأطراف المتخالفة يكون على أشدّه.

ولا يمكن أن يصبح الخلاف بين النّاس سائدا إلّا إذا رأي كلّ طرف أنّه صاحب الحقّ، وغيره لا حقّ له. ومن هنا، تؤخذ المواقف، وتتأزّم الأحوال بين الأطراف؛ فتقود إلى المواجهة. ولأنّها المواجهة؛ فستكون في جلّها بين متمسّك بحقّ، وبين معتدٍ عليه، وبذلك تُرفع الأصوات على الأصوات؛ ممّا يدفع الأطراف إلى ما هو أسوأ.

ولسائل أن يسأل:

لماذا يُرفع الصوت إذا كان صاحبه على الحقّ؟

أقول:

الحقّ دائما هو أعلى من أيّ صوت، ولأنّه كذلك فلا داعي لرفعه، ولذا اترك الحقّ يعلو على كلّ شيء بما فيه صوتك، وإن كان صاحبك

على حقّ فلا ترفع صوتك عليه، وإن رفعته فستجد نفسك أمام المواجهة، وقبول دفع الثّمن، الذي به يتمّ كشف الزّيف وإعادة الأمور إلى نصابها بالقوّة متى ما تهيّأ أصحابها لذلك واستعدوا لها وتأهّبوا.

قال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[32]. قال (يُخالفون) ولم يقل (يختلفون) ذلك لأنَّ أمر الله تعالى نافذ فيمن يخالف أمره وأمر رسوله الكريم عليه الصّلاة والسّلام؛ فمن هذه الآية الكريمة، يتّضح الخلاف كونه بين ثابتٍ ومهتز؛ فالثابت هو الحقّ (أمر الله تعالى) والمخالف للحقِّ مخالف للثابت، ولهذا؛ فمن يخالف الأمر الحقّ؛ هو المهتزّ المنحرف عن الثابت اعتدالا وعدلا.

فمفهوم الخلاف جاء على مضمون من خالف عهده ووعده، أمّا مفهوم الاختلاف فجاء على مضمون من اختلف عن أقرانه، ومن هنا: يصبح معنى كلمة (أختلفُ): غير معنى كلمة (أخالفُ)؛ فالأولى، كمن يقول لك: أختلف معك في الرّأي، وهذه تؤدّي إلى وجوب المناقشة، والحوار، أو الجدل حتى الاقتناع المشترك، والثانية: كمن يقول لك: أخالفك عليه، وهذه تؤدّي إلى الخلاف، والخصام، والنزاع.

ولهذا، يكون معنى (الاختلاف في) غير معنى (الخلاف على)؛ فالاختلاف (في الشيء) لا يكون إلّا بين المشتركين. أمّا الخلاف (على الشيء) فيدل على وجود الرّفض، والرّفض المضاد (المواجهة).

يظهر الخلاف بين النّاس عندما لا يكون للاتفاق مكانة بينهم؛ إذ لا يمكن أن يستوي من ثقلت موازينه مع الذي موازينه قد خفّت، مصداقا لقوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ

[32] النور 63.

مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ}[33]، وقوله تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ}[34].

وهنا؛ فالخلاف على مجموعة من المعاني والدّلالات المتقابلات المتعاندات؛ فهذه، أعني (أيّ هذه) لا يمكن أن تكون تلك، وهي لن تصبح كذلك؛ فلا يمكن أن تستوي الظلمات ولا النّور، ولا يمكن أن يستوي الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ؛ فمن يتّبع ما يؤدِّي إلى هذه، لابدّ أن يكون مخالفا إلى ما يؤدِّي إلى تلك.

فالخلاف جاء من المخالفة، وليس من الاختلاف، أي: خالف يخالف مخالفة؛ وليس بمعنى: اختلف يختلف اختلافا؛ ففي الأولى تباين وتباعد وتعاند وتقابل وتضاد، وفي الثانية: اختلاف ومساندة وتتمة؛ فمن أكل حراما غير الذي أكل حلالا، ومن تأخّر غير الذي تقدّم، ومن أخطأ غير الذي أصاب، والذي يعقل ويتبيّن غير الذي لا يعقل ولا يتبيّن، والذي يحكم بين النّاس ويعدل غير الذي يحكم بينهم ويظلم.

عِلل الخلاف:

ولأنّ الخلاف شيء؛ فلا يكون إلّا شيئا في ذاته، أو من ورائه أشياء أخرى؛ فإن كان شيئا في ذاته يكون مخلوقا، وإن كان من أشياء أخرى يكون مختلقا، ولأنّه لا شيء إلّا ومن ورائه مشيء له؛ فلا بدّ أن يكون وراء الشيء المختلق (الخلاف) أشياء (علل) ومن هذه العلل المسبِّبة في وجوده:

---

[33] القارعة 6 . 11.

[34] فاطر 19 . 22.

. الباطل.

. الظّلم.

. الإقصاء.

. التغييب.

. العزل السياسي بغير حقّ.

إذن، لا وجود للخلاف لو لم يكن الباطل، والظلم، والإقصاء، والتغييب، والعزل السياسي، أشياء سابقة على وجوده.

وعليه؛ فهذه العلل تؤدّي إلى الخلاف، والخلاف بدوره يؤدِّي إلى ما بعده من علل منها:

. الشِّقاق.

. الخِصام.

. النِّزاع.

. الصِّدام.

. العداوة.

هذه العلل لو لم يكن من ورائها علل ما كانت، ولأنّها كانت من بعدها؛ فمن بعدها علل، أي: إنّ الشّقاق، والخصام، والنّزاع، والصّدام، والعداوة، تؤدّي إلى الفُرقة، التي تؤدّي من بعدها إلى المواجهة، ثمّ تؤدّي إلى الاقتتال.

ولمتسائل أن يتساءل:

هل الاقتتال غاية؟

أقول:

لا، بل الغاية بلوغ الحلّ.

ولكن إنْ بلغ الخلاف بأصحابه إلى الاقتتال؛ فما هي الأفعال المترتّبة عليه؟

الأفعال المترتّبة عليه في دائرة المتوقّع هي:

. انتصار.

. هزيمة.

. استسلام.

. انسحاب.

. اعتراف.

. تكيّف.

ولأنّ وراء كلّ علّة معلولاً؛ فما هو المعلول من بعد ما تقدّم من عِلل؟

أحد أمرين:

تحقيق الإصلاح عن إرادة، أو بلوغ الحلّ وإن كان الثّمن غاليا.

دوافع الخلاف:

لأنَّ الخلاف خروج عن القيم والأعراف المرسّخة للأخذ بالحُجّة؛ فالخلاف مع المخالف لما يجب يعد خلافا موجبا، والخلاف معه على ما لا يجب يعد خلافا سالبا، وبذلك؛ فللخلاف دوافع منها:

. الإذلال تحت أيّة علّة هو علّة تدفع للخلاف.

. التهميش.

. القهر.

. السخرية.

. التنابز بالألقاب الذي نهى الله عنه (وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ).

. أنا كلّ شيء.

. أنت لا شيء.

. من أنتم؟

هذه المستفزّات من الدوافع هي المؤدّية للخلاف، حتى وإن قَبِل بها من قَبِلَ تحت مظلّة التكيُّف.

وأهم أداة يمكن استخدامها للحدّ من حدّة الخلاف هي التفاوض، الذي به يتمكّن الطرفان من التوقّف عند الآتي:

بالنسبة للمهزوم، يقبل بالتفاوض لأجل تفادي المزيد من الخسائر، وكذلك من أجل كسب الوقت حتى استمداد القوّة. ولأنّ المهزوم على حالة من الضّعف؛ فليس له بدّ إلّا التفاوض، أو الاستسلام، ولكن إن قبل بالاستسلام دون القبول بالتفاوض، سيجد نفسه تحت الضغوط والإكراه أمام تقديم المزيد من التنازلات على حساب الكرامة.

أمّا بالنسبة للمنتصر؛ فالتفاوض لأجل تثبيت الحدود التي امتدّ داخلها، وعلى حساب الغير، لتكون من نصيبه، ولهذا، سيكون الطرف المنتصر ضاغطا على الطرف المهزوم، كي لا يترك له مجالا لكسب الوقت واستمداد القوّة؛ فيجبره على التفاوض، والتوقيع على اشتراطات غير عادلة.

أمّا في حالة ضعف الطرفين، حيث لا منتصر ولا منهزم، فإنّ التفاوض يؤدِّي إلى قبول التوقّف عند نقطة وسط، دون أيّة مغالبة.

الاختلاف

الاختلاف تنوّع في النوع والجنس والجودة والمطالب والرغبات والقدرات والإمكانات والمعتقدات والأعراف وكلّ الخصوصيات هي تنوّع يتمم بعضه بعضا. ولهذا فالاختلاف لا تضاد فيه، فاللون الأسود لا يكون ضدّ اللون الأبيض، بل هو المغاير له، ممّا جعل الجمال في كليهما، وهكذا الاختلاف بين الألوان لا يزيد الحياة إلّا جمالا، فمع أنّ الوردة الواحدة جميلة، ولكن تظل باقة من الورد أكثر جمالا.

فالإنسان كونه خُلق على حُسن التقويم فهو بدون شكّ إنسان واحد، ولكن لم يكن نوعا واحدا كونه (ذكرا وأنثى)، ولم تكن قدرات الإنسان وظروفه ومعارفه واحدة، ومع أنّ الاختلاف تنوّع في اللون، والشّكل، والرّأي، والرّؤية، والصّوت، والمقياس، لكن التشابه لا ينقطع بين المختلفين، ومع ذلك فالاختلاف في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع يؤدّي إلى الخلاف (التضاد والمواجهة) مصداقا لقوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}[35]. أي: من بعد الرّسل لو شاء الله، النّاس ما اقتتلوا، ولكن لأنّهم اختلفوا على ما جاءت به الرّسل فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ؛ فاقتتلوا، أي: لو اقتصر اختلافهم (في الدّين) وليس (على الدّين) لما اقتتلوا، ولكن لأنّ اختلافهم امتدّ إلى الخلاف على الدّين؛ فمن هنا، وجب الاقتتال كونه اقتتالا بين معتدٍ على الدين ومؤمنٍ به.

[35] البقرة 253.

قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}[36]. مع أنّنا قد ميّزنا بين مفهومي: (الاختلاف في) و(الخلاف على) فإنَّ الاختلاف في الحقّ إن لم يؤدِّ إلى الاقتناع الممكّن من التصويب والتصحيح؛ فلا بدّ أن يؤدّي إلى الخلاف.

فقوله تعالى: (وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)، أي: إنَّ الاختلاف في الكتاب يجعل المختلفين في شقاق؛ فكلّما اختلفوا فيه على ما أنزل فيه من آيات معجزات، كان المختلفون فيه بلا شكّ في شقاق (في خلاف)؛ لأنَّ الاختلاف فيه (في الكتاب) يؤدّي إلى الخلاف عليه (على الحقّ المنزّل).

عِلل الاختلاف:

ولأنّ الاختلاف مخلوق في المخلوق فلا يمكن أن يكون الاختلاف موجودا لو لم يكن هناك مخلوق يجسّده فعلا وعملا وسلوكا في الحركة والسكون، ومن هنا؛ فالاختلاف لا يكون إلّا بوجود الطرفين أو الأكثر، وكذلك لا يكون إلّا والعلل من ورائه علل، ولأنّ من وراء الاختلاف عللا؛ فلا بدّ أن يكون هو الآخر علّة لغيره، ولذا؛ فهو العلّة المسببة في الالتقاء الممكّن من:

. النقاش.

. الحوار.

. الجدل.

. التفاوض.

---

[36] البقرة 176.

وعليه؛ فالنقاش، والحوار، والجدل، والتفاوض، علل تؤدّي إلى علل أخرى منها:

. التبيُّن.

. التفهّم.

. التفاهم.

. الاتفاق.

إذن، عندما يؤدِّي الحال بالملتقين إلى بلوغ التبيُّن، والتفهُّم، والتفاهم؛ فلا بدّ أن يحقّقوا من الأهداف ما كان بالنسبة لهم مأمولا، ومن هذه الأهداف:

. العفو.

. الصفح.

. التسامح.

. التصالح.

. التوافق.

. بلوغ الحل ونيل المأمول.

أدوات الاختلاف:

الاختلاف كونه تنوّعا بأسباب الفروق الفردية والقيمية والمعارف والعلوم؛ فهو الممكّن من:

1 . المشاورة، حرصا على تحقيق الأفضل والأفيد والأجود، من أجل البناء، والإعمار، وصناعة المستقبل المأمول.

2 ـ النقاش، وذلك لإثراء الموضوع قيد المناقشة، والوصول إلى ما يمكّن المختلفين من العمل المشترك، وإنجاز الأهداف المشتركة.

3 ـ الحوار، كونه تعمّقا في الموضوع المختلف عليه، يمكّن المتحاورين من التفاهم المرضي.

4 ـ الجدل، وهو لا يكون إلّا بين مختلفين فكرا ومعتقدا، وطموحا، ولهذا، لا يمكن أن يتمّ التفاهم بين المختلفين إلّا بعد جدال يمكّن من التنازل عن المتمسّك به، وكأنّه لا شيء غيره.

الاختلاف حُجّة لإظهار الحُجّة:

الاختلاف حُجّة بها تتعدد الضمائر؛ فأنا لم أكن أنت، وأنت لم تكن هو، وهمّ لم يكونوا أولئك، ومن ثمّ فالقوي لم يكن الضعيف، والمعتدي لم يكن المعتدى عليه، والعالم غير الجاهل، والغني غير الفقير، قال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[37]، وقال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[38]. وقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ}[39].

إذن، حُجّة الاختلاف هي الدّامغة للباطل، وهي التي تقود النّاس إلى ما يجب أن يكونوا عليه، وبخاصّة عندما تُجيب على تساؤلاتهم، وتُسهِم في إشباع حاجاتهم المتطوّرة، سواء أكانت حُجّة رسالة، أم نبأ، أم أنّها

---

[37] النحل 76.

[38] الزمر 9.

[39] الروم 22.

حُجّة فكرية، أم علمية، أم أخلاقية، أم سياسية؛ ولذلك، النّاس يلتفّون حول من يتزّعم أمورهم بالحُجّة، ولكن بعد أن يتعرّفوا على مقدرته، وعظمة رسالته، أو حُجّته، وسلامة أسلوبه، وسداد رأيه، ومدى تطابق ما يقال مع ما يُفعل. وهكذا؛ فالحكم المرضي لا يسود إلّا بالحُجَّة التي تعيد الحقّ لأصحابه كلَّما ظُلموا، والحكم إنْ فقد حُجَّته فقد شرعيّته، وإنْ فقد شرعيَّته وجب التغيير.

إذن: من قوّة الرِّسالة والنبأ، ومن قوّة الفعل والعمل المؤسّس على الحُجّة يستمدّ أصحاب الزعامات زعاماتهم، ممّا يجعل زعاماتهم من بعدهم زعامات حجّة باقية.

فالشّريعة، والدستور، والقانون (حُجج)، وهي القوّة الفاصلة أمام القضاء العادل، وعليها تستند البرهنة، ومنها المقارعة تستمدّ قوّتها الممكّنة من المغالبة؛ ممّا يجعل الحُجَّة قوّة في الإثبات، أو الدّحض والنفي، وبذلك تصبح المقارعة كلامية (حُجَّة بحجَّة) وقد تكون (قوّة بقوّة) مع تعدد الأساليب والوسائل الممكِنة، والممكّنة من المغالبة.

فالحُجّة تُمكّن الإنسان من التمييز بين الحقِّ والباطل (رفض أو قبول)؛ فالذي يميّز يَعرِف ويُقدِّر الأشياء وفقا لمعطياتها ومبرّراتها المعرفية، والذي لا يميّز بين هذا وذاك؛ فلن يعرف، ذلك لأنَّ الشخصية التي تمتلك مَلَكة التمييز لا تقتصر في تمييزها على الأدلّة والشّواهد المحسوسة فقط، بل تتعداها إلى معرفة كشف العلائق المجرّدة التي تجعلها تدرك ما يجب إدراكه حسّا وتجريدا، حتى تصبح على التوازن المحقّق للتكيّف والتوافق.

فالقبول، أو الرّفض، أو المواجهة، أو الثّورة، لا تكون (هي كما هي عليه) إلّا من أجل بلوغ حلّ منطقيّ، ولأنَّه الحلّ؛ فهو لا يكون إلّا حُجّة

صانعة للمستقبل، ولأنَّه حُجَّة؛ فالأخذ به يحقّق الرّضا الممكّن من نيل الاعتراف والتقدير.

فالحُجَّة بيّنة لا لبس ولا غموض، ولهذا، كان الرُّسُل حُجَّة من الله للعباد، {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}[40].

بعث الله تعالى الرّسُل حُججا على أقوامهم حتى لا يكون للنّاس على الله حُجَّة، أي: بعد أن أرسل الله رُسُله عليهم الصّلاة والسّلام؛ فلم يَعد للنّاس حُجَّة (معذرة) بأن لا يؤمنوا؛ فلو لم يرسل الله الرُّسُل لكان للنّاس ما يقولون، ولكنّه تعالى بعث إليهم رُسُلا كراما، وبين أيديهم الحُجج العظيمة الدّالة على واحديته تعالى، وصفاته الحسنى، كما أنّها جامعة للفضائل التي تستمدّ منها مكارم الأخلاق؛ ومن هنا: فَلِمَ لا يؤمنون؟

ولأنّ البعض لم يؤمن؛ فلابدّ أن يترتّب على هذا العصيان العقاب الشديد للذين يكفرون بالله ويشركون، وليس لهم بدّ إلّا اختيار أحد أمرين:

. الإيمان بالرُّسُل واتباع ما يهدون إليه؛ فيكونون من الوارثين في الدّارين، ويكون لهم الجزاء الأوفى مغفرة، وتوبة، وفوزا بالجنّة.

[40] النساء 163 . 165.

. أمّا الكفر والعصيان والشرك بالله تعالى؛ فيكونون من الخاسرين في الدارين، ويكون لهم العذاب الشديد الذي به سيكونون في جهنّم.

ولهذا؛ لا إكراه في الدين، بل الدّين الحُجَّة التي تحمْل الحقيقة، التي لها مصدّقون قادرون على دحض الباطل، والتمكّن من بلوغ الأحكام العادلة، بعد كشف الزيف عنها، وإثبات الحقّ فيها، والتحاور المنصف بها، والعمل مع المختلفين دون تحيُّز.

ولذا، لا ينبغي أن يقتصر الحوار والنقاش والجدل بين المختلفين على العناد نتيجة أفكار أو أحكام مسبقة؛ فإن اعتمد ذلك على العناد لا يمكن أن تؤدّي النتائج المتوصّل إليها إلى بلوغ الحلّ؛ ممّا يجعل الحجّة ضعيفة كونها أخذت عن عناد، ولهذا؛ فالحُجَّة التي تُطرح للنقاش والجدل دون تعصّب لا تشكل عبئا على المدافعين عنها من خلال تقديمهم البراهين التي تؤيدها، مع تقبُّلهم الآراء التي تعارض تأييدها.

فالمحاجّة بين الأطراف المتجادلة، أو المتحاورة، أو المتفاوضة، قد تؤدّي إلى انسحاب ضعيف الحُجَّة من ميادين النقاش، وقد تؤدّي إلى انسحاب قوي الحجّة أيضا؛ وذلك نتيجة لتحامل أحد الأطراف عليها، أو على أصحابها، ممّا يجعل التفاوض، أو النقاش والمجادلة في حالة خروج عمّا هو صواب، وهذا يؤدِّي إلى انسحاب أحد الأطراف، وقد يكون المنسحب هو صاحب الحُجَّة الصادقة، وإذا ما حدث هذا الأمر (انسحاب صاحب الحجّة الصادقة) قد يتمكّن ضعيف الحجّة، أو صاحب الحجّة الباطلة من أن يستمرّ في عرض حُجَجِه الواهية على من تبقّى من الذين لا حُجَجَ ولا دراية لهم، أو الذين تمّ استغفالهم بغير حقّ، ولهذا ينبغي أن يكون الحوار والجدال بين النّاس بالتي هي أحسن، وأن لا تكون فيه سيادة إلّا للحُجَّة بالمصادق.

ولأنَّ الاختلاف حُجّة وسُنّة من سُنن الله تعالى في خلقه، قال جلّ جلاله: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[41].

ولأنّ الاختلاف حُجّة، جاء الاختلاف آية من آيات الله تعالى، ذلك لأنّ الآيات الكريمة حقّ، والحجّة حقّ بها تمثل الأشياء بين المختلفين (هي كما هي)، ولذلك؛ فالأرض حُجّة ظاهرة ولا تُخفى، حالها كحال اختلاف الليل والنّهار حُجّة، وحال الفُلك التي تجري في البحر حُجّة، وما يُنزله جلّ جلاله من السماء غيث حُجّة، به تُحيا الأرض بعد موتها، وهكذا، بثه للدّواب في الأرض حجّة، وتصريفه للرياح والسّحاب المسخّر بين السماء والأرض حُجّة، ولذا، لا داعي لإنكار الحجّة، إنّها الحاسمة للأمر المختلف فيه. قال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ}[42].

إنّها الحُجّة البيّنة، ولأنّها الحُجّة البيّنة فهي الفاصلة بين المختلفين في الحقّ والباطل، والفاصلة بين المختلفين فيما هو دقيق وما هو أدق منه؛ ممّا يجعل المتحاورين والمتجادلين والمتفاوضين متبيّنين للحقيقة هي كما هي دون أن تعلق بها شائبة، ومن ثمّ يستطيعون الاختيار دون إكراه.

وبتوافر الحُجّة ينفكّ الخصام والشّجار، وينتهي الخلاف بين النّاس إذا تأسّس الحوار والنقاش والجدل بينهم على الموضوعية العلمية، التي

---

[41] – البقرة 164.

[42]– الأعراف 117 . 120.

تُظهر الحقيقة من مكامن اختفائها، كما ظهرت أمام السحرة الذين خرّوا ساجدين، {قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}[43]. ومن هنا: كان الحقّ لموسى حُجّة به دُمغ فرعون وزُهق الباطل.

وهكذا ستظلّ الحُجّة حاسمة للأمر المختلف فيه بين النّاس، ومن يحتكم بالحجّة قد احتكم بالحقّ عدلا؛ فالاختلاف كما يقول غاندي: (الاختلاف في الرّأي ينبغي ألّا يؤدِّي إلى العداء، وإلّا لكنت أنا وزوجتي من يلدان الأعداء).

مؤشّرات الاختلاف (أنا، أنت، نحن):

هذه ضمائر تستند إلى منطق تحديد الهويّة، فأنا تشير إليّ، وأنت تشير إليك، ونحن تحتوينا، وهم غيرنا.

في منطق الحوار (أنا) و(أنت) طرفان مختلفان؛ فأنا لم أكن أنت، ولن، وأنت كذلك لم ولن تكن أنا؛ فأنت بالنسبة لي تعد الآخر فردا، أو تنظيما، أو دولة، أو أيّ طرف من أطراف الاختلاف، وهكذا تكون أنا هي الآخر بالنسبة لأنتَ.

ولذا؛ فمِن مستهدفات منطق الحوار أن يسود بين المتحاورين منطق (نحن)، بدلا من منطق (أنا أو أنت)؛ فمنطق نحن منطق استيعابي لا يستثني أحدا من المتحاورين، أو الملتقين المختلفين، أمّا منطق (أنا) أو (أنت) فهو منطق تفريقي.

وعليه: ينبغي أن نحدّد من أنا؟ ومن أنت؟ ومن نحن؟ فأنا هو الذي له حقوق وواجبات ومسؤوليات، كما هي التي لك بالتمام؛ فإذا ساد هذا المنطق يصبح الجميع متساوين؛ حقوقا وواجبات ومسؤوليات،

[43] الأعراف 121، 122.

ويصبح لا خلاف مع أنّ الاختلاف بيننا سيظل سائدا، وهكذا دائما يرى الأنا أنّ له وطنًا، ودينا، وعرفا، ولغة، وتقاليد، وخصوصية فردية تختلف عمّا يخصّ الآخر؛ فدين الآخر، ولغته، وتقاليده، وأعرافه، وكلّ ما يجعل له خصوصية حتى وإنْ كان الآخر من بني الوطن هي خصوصيته التي يجب أن تقدّر؛ فعلى سبيل المثال: في ليبيا مع أنّ للعرب والأمازيغ والطوارق والتبو دينا واحدا هو الإسلام، إلّا أنّهم يتّبعون مجموعة من المذاهب المختلفة (المتنوّعة) كغيرهم من المسلمين؛ فهم جميعا لهم عادات وتقاليد واحدة وإن تنوّعت، ولهم لغة واحدة وإن تنوّعت، ومن هنا؛ فاتفاقهم على التنوّع يعد اتفاقهم على الوحدة الوطنية، ولكن إنْ تعصّب أحدهم للغته، أو للمذهب الذي اختاره؛ فلابدّ أن يحدث بينهم الخلاف الذي يقود إلى الصدام والفرقة.

ولكن إنْ ساد بينهم الاعتراف والتقدير لكلّ ما يكوّن خصوصياتهم، فيسود بينهم التفاهم والتفهّم اللذان يمكّنانهم من استخدام كلمة (نحن معا)، وإذا (لم)، ستكون كلمة (لن) هي السائدة بينهم (أنا) أو (أنت).

إذا كان هذا الحال على مستوى أبناء الوطن الواحد؛ فكيف يا ترى سيكون على مستوى أهل الأديان والأوطان؟

أهل الأديان عندما يسود بينهم منطق (أنا) أو (أنت) تصبح مسميات الأديان اليهودية والمسيحية والمحمدية (الإسلام)، وعندما يقبلون بسيادة منطق (نحن) يصبح الجميع إبراهيميين (الإسلام)، أو أصحاب الديانات الإلهية، الذين تختلف دياناتهم عن البوذية، والكنفوشية، والزرادشتية، والهندوسية، ولذا؛ فعندما يقرر أهل الأديان الاعتماد على منطق الحوار؛ فلابدّ من الجلوس على طاولة حوار واحدة، لأجل كلمة

سواء، والكلمة السواء تجعل الصلة بين المتحاورين بدون فوارق، ولا خلاف على كلمة الحقّ.

وهكذا، شعوب الشّرق والغرب والشمال والجنوب، إذا لم تحتوِهم كلمة (نحن) سيظلون على ما هم عليه بين الضميرين (أنا) أو (أنت) اللذين يُفرِّقان في بعض الأحيان بين المرء وزوجه، وهذا لا يعني أنّ النّاس أو المتحاورين سيظلون وكأنّهم نسخة واحدة؛ فـ(أنا) من حيث القدرات والاستعدادات والإمكانيات تختلف عن قدرات واستعدادات وإمكانيات (أنت)، وهذه تختلف بالتمام مثلما تختلف حاسة السمع والبصر والذوق واللمس والشّم من شخص لآخر، وعليه؛ فبالضرورة نحن أصحاب الحواس في حالة اختلاف قياسي، ولهذا أنا أختلف عن أنت، وأنت تختلف عن أنا، ومع ذلك، نحن نمتلك المقدرات الحسية التي تجعل بيننا مبدأ القبول هو السائد، والعقل هو مصدر الحوار، والمنطق هو الوسيلة المثلى التي نحتكم بها حجّة بحجّة.

ولأنّنا نمتلك ثروة هائلة من قواعد المنطق، ونمتلك ثروات هائلة من المشاعر والأحاسيس والطموحات والآمال، فَلِمَ لا نسخّر كلّ ذلك من أجلنا جميعا؟

ولماذا الفرقة التي تترتّب عليها العداءات التي تحول بين التقائنا (أنا وأنت)، لنكتب بالخط العريض كلمة: نحن بنو الوطن الواحد، ونحن الذين تربطنا علاقات مع إخوتنا في الدين خارج الوطن، ونحن أصحاب القضايا المشتركة، والمصالح المشتركة، والمستقبل المشترك؟

وعليه: فكلمتا (أنا أو أنت) تسمحان بمسافة فراغ تجذب مشاعر الخوف إليهما؛ فكلّما زاد تمسّك وتعصّب الأنا بأناته اندفع الـ(أنت) لإعادة حساباته، وهذه تزيد الشكوك وتقلل من الثّقة التي ينبغي أن تسود

بين الطرفين (أنا وأنت)؛ فأنا الفرد ينبغي أن أسود بكرامتي، وأنا الحرّية ينبغي أن أعمّ النّاس، وأنا الشفافية ينبغي أن أكون السّلوك والفعل، وأنا الوطن ينبغي أن أكون ملكا خالصا لأهلي، وأنا الأبوة والأمومة والأخوة والأسرة والجيرة التي لا ينبغي أن يحرم أحد من مشاعري وانتمائي. وهكذا يصبح أنا المنطق الذي يجب أن أسود بينكم إذا أردتم التفاهم والتواصل، أو أردتم الاعتراف والتقدير. وأنا النّاس كلّ النّاس الذين لهم حقوق ينبغي أن يمارسوها، ولهم واجبات ينبغي أن يؤدّوها، ولهم مسؤوليات ينبغي أن يحملوها، ويتحمّلوا ما يترتب عليها من أعباء.

ومن ثمّ، تصبح كلمة (أنا) كلمة حقّ لابدّ أن تقال. وفي المقابل تصبح كلمة الباطل التي عليها (أنت) باطلا لابدّ أن يزال، وكلمة (أنت العبد) في خبر كان بأسباب الحرّية والانعتاق، وعندما تكون (أنت) الاستعمار يجب أن تُهزم، وأنت القيد يجب أن تُفك أو تُكسّر، ولذلك؛ فأنت لم تكن أنا؛ ويا ليتك تفهم أنّنا نحن معا بنو وطن واحد، والملك لله الواحد القهّار.

وعليه، إن لم يحدث اللقاء والتفاهم المنطقي بين أطراف (أنا) و(أنت) المختلفتين على السّلطة، أو الثروة؛ فستكون الجهود المبذولة من كلّ طرف على حساب الطرف الآخر في خبر كان، وإذا ما تمّ ذلك؛ فلا تستغرب أن يكون الصّدام هو سيد الموقف. ولكن إنْ أردنا الحلّ فعلينا الجلوس على طاولة (نحن) التي تجمع شتاتنا، وتخلّصنا من الفاقة والحاجة، وتبعد عنا المترتّب على الصدام والخصام. وإن لم نفكّر في مستقبلنا جيّدا فلا تستغرب أن يكون في دائرة الممكن غير المتوقّع مؤلما.

ولذلك؛ فالعقل الأوربي والغربي بشكل عام دائما يفكر في يومه، ويسعى لرسم سياسة مستقبله، أمّا العقل النّامي وبشكل عام في

المجتمعات التي كانت تسمى مجتمعات العالم الثالث أيّام الحرب الباردة؛ فهم في مُعظم الأحيان لا ينظرون إلى المستقبل بنظرة الأمل، بل في معظمهم ينظرون إلى الماضي كمصدر للدفء، وبالتالي يحنّون إليه، وكأنّه سيأتي إليهم مرّة ثانية.

هذه الحال بالنسبة للعقل النّامي، كحال العقل الواهن الذي لا يمكّن كبار السنّ من التفكير التطلّعي، وبالتالي؛ فهم في بعض الأحيان لا يرون مستقبلا أفضل من الأخذ بالماضي، ومع أنّ في الماضي العبر، لكن اقتصار التفكير عليه وقفل أبوابه لا يؤدِّي إلّا للتخلّف، ومن ثمّ: يصبح بعض من كبار السّن هم في حالة لكّ للتاريخ الماضي؛ فلا ينسجمون إلّا بالحديث عن بطولاتهم إن كانت لهم بطولات، وعن مخاوفهم التي كانت بأسباب خارجة عن الإرادة، وهكذا هي أحوال أهل الجنوب (ما كان يسمى العالم الثالث)، أمّا أحوال أهل الشمال والغرب كحال الشباب، دائما هم في حالة طموح وتحدٍّ لما هو كائن، يعيشون يومهم، ويحلمون بمستقبل أفضل؛ فالحياة عندهم بدون طموح ترافقها المرارة، وبالطموح تزداد حلاوة.

ومع أنّ التقدّم المادّي بين أهل الشمال وأهل الجنوب قد ترك بينهم هوة واسعة، فإنَّ الاستقرار والتقدّم معا لا يكونان سائدين إلّا باستيعاب أهل الشمال لأهل الجنوب، واستيعاب أهل الجنوب لأهل الشمال، وهذه لا تتمّ إلّا عن إرادة تجعل من أنا وأنت (نحن معا ونحن سويّا). وتصبح اليد العاملة الوفيرة في المجتمعات النامية هي العنصر الرّئيس في إشباع حاجة سوق العمل، ويصبح الإنتاج الوفير نوعا وكما هو المحقّق للنُّقلة المأمولة من قِبل النّاس.

ولذلك؛ فسيادة منطق (أنا وأنت) حُجّة من أجل (نحن) يُحفّز على التقبّل والاستيعاب، كما أنّه يدفع إلى كلّ ما من شأنه أن يشبع الحاجات المتطوّرة والمتنوّعة، وبالتالي يحقّق الاستقرار والعدالة في التوزيع بين النّاس شعوبا وأمما.

وعليه:

فمنطق (أنا وأنت) منطق تنوّع واختلاف هدفه جمع الشّمل، أمّا منطق (أنا أو أنت) فهو منطق خلاف، وتشتّت، وصدام، وخصام، ومواجهة، واقتتال بين النّاس.

ولأنّ منطق (أنا أو أنت) منطق خلاف وفراق؛ فهو المنطق المبرّر لإنشاء وتكوين أجهزة الأمن السرّي والعلني في كلّ بقاع المعمورة؛ فهذه الأجهزة هي صاحبة فلسفة الشكّ في الجميع إلى أن يثبت الجميع غير ذلك، ولكن إذا أصبح الشّك هو السائد في (أنا وأنت)؛ ففيمن يا ترى ستغرس الثّقة؟ وعندما تصبح مهمة الحكومة وأجهزتها الأمنية هي الشّك في (أنت)؛ فهل يمكن لنا أن نصف مثل هذه الحكومة بالحكومة العادلة؟

ولذا: فإنْ لم تتغيّر في الوطن الواحد لغة (أنا) أو (أنت) وتحلّ مكانها لغة (أنا وأنت) من أجل وطن واحد، وأمن واحد، وحقوق واحدة، وواجبات واحدة، وعدالة واحدة، ومستقبل مشترك، لا يمكن أن يكون الاستقرار، ولا يمكن أن تحدث النُّقلة إلى الأفضل والأنفع والأجود والأهم والأفيد للجميع.

يسود الاستقرار والأمن في الدّول التي تولي اهتماما خاصّا بالمواطن من النواحي السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والنفسية، والثقافية، والذوقية، وفي المقابل لا يسود الاستقرار في الدّول التي تركّز على الأمن

السرّي كونه جهازا لمراقبة المواطنين خوفا على الحكومة قمّة سلطانها؛ فهذه الأجهزة في معظم الأحيان هي في دول العالم الثالث لا ترى المواطن إلّا (آخرا). وهكذا هو حال بعض الأنظمة التي لا ترى مواطنيها إلّا (آخرين)؛ فتسعى باستمرار لتكديس الأسلحة التي لاُ تشهر إلّا في وجوه المواطنين المطالبين بحاجاتهم المفقودة.

هذه النظرية غير العادلة لا مستقبل لها إلّا النهاية، ولذا: فالتاريخ دائما يثبت سقوط الأنظمة الفاسدة على أيدي الشعوب التي نظر إليها الديكتاتوريون نظرة إلى آخرين وكأنّهم لم يكونوا من بني الوطن. ولذلك؛ فلو كانت السياسة، والخطط، والاستراتيجيات، لا ترسم إلّا بلغة (نحن معا) و(نحن سويا) ما كانت الفِتن ولا الصدامات في الأوطان، وبالتالي لن يعود هناك مبرر للثورة، ومن يحاول ذلك سيكون أضحوكة ومحلّ سخرية. ذلك لأنّ الثورة هي دائم لأجل إزاحة المظالم، وعندما تكون ثورة أنا، وأنت، وهم (سويا) لا شكّ أنّها ستمكّن الجميع من ممارسة الحرّية، التي لا تجعل للمظالم مكانا بين النّاس لتستقر فيه.

ولأنّ لكلّ ثورة غاية؛ فالثورة لا شكّ أنّها ستختفي ببلوغ أصحابها تلك الغاية التي تفجّرت من أجلها، ولكن إن ظن أحد أنّ الثورة ستظل مستمرّة فعليه أن يعيد حساباته بإعادة قراءة التاريخ. وحينها سيكتشف البعض أنّهم غافلون باعتقادهم أنّ الثورة عمل دائم؛ فالثورة عندما تكون عملا دائما تصبح وظيفة، وعندما تكون وظيفة تفقد محتواها ومضمونها، وعندما تفقد محتواها ومضمونها ستواجهها ثورة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فتجتثها من جذورها.

النّاس بين اختلاف وخلاف:

ومع أنّه سبق لنا أن عرّفنا كلّا من الاختلاف والخلاف، كما فرّقنا بينهما دلالة، ومفهوما، ومعنى، لكن سيظل كلّ منهما غير معرّف (هو كما هو)؛ ذلك لأنّ لكلّ اختلاف طبيعة، ولكلّ خلاف طبيعة؛ فخصوصية الموضوع تجعل للخلاف خصوصية موضوعية تختلف عن غيرها من المواضيع السابقة عليها واللاحقة بها، وكذلك الاختلاف بين المختلفين على المختلف عليه، لن يكون ذا وجه واحد، بل لو تكررت مبررات الاختلاف بين الأشخاص أنفسهم في زمن غير ذلك الزمن؛ فلن يكون الاختلاف بينهم مطابقا لذلك الاختلاف في ذلك الزمن الغابر.

ولأنّ لكلّ سابقٍ سابقا عليه، كان الإنسان سابقا على الخلاف؛ فلو لم يكن الإنسان سابقا متكاثرا ما كان للخلاف مكان ليحلّ فيه بين النّاس.

النّاس أسم كثرة، والاختلاف تنوّع بين الكثرة، وتأكيد على وجود الفروق الفردية والجماعية والمجتمعيّة؛ فهم كونهم النّاس على الكثرة المتنوّعة بفروق عظيمة، يختلفون على خالق الشيء كما يختلفون على الشيء ذاته؛ فمع أنَّ الله واحد، فإنَّ النّاس مختلفون على توحيده، وهكذا المحبّة مع أنّها واحدة، فإنَّ النّاس فيها متفاوتون؛ فمحبّة الآباء والأمهات، تختلف عن محبّة الزوجات، والأبناء، والإخوة والأخوات، وهكذا النّاس في حبّ الحياة الدنيا هم متفاوتون؛ فالإنسان مع أنّه من نفس واحدة فإنَّ أنفس النّاس على الكثرة هي بين اختلاف وخلاف؛ فهناك النفس الطاغية، والنفس الظالمة، والنفس المكيدة، والنفس الماكرة، والنفس الضالة، والنفس الحاقدة، والنفس الأمّارة بالسّوء، والنفس الهاوية، والنفس المطمئنة، وغيرها كثير.

ومع أنّ أصل الخلق الإنساني واحد من نفس واحدة (آدم) عليه الصّلاة والسّلام فإنَّ المعرفة بين النّاس مختلفة كما هي مختلفة بين مكوّنات الخلق المدرك مثلما هو الحال بين (الملائكة والجن والإنس)؛ فبالمعرفة يتوحّد المخلوق المميّز، وبها يفترق، وبها النّاس يهتدون، وبها يضلون، وبها يعدلون ويظلمون، ويؤمنون ويكفرون، ويشركون وينافقون، ويفسقون ويكذبون.

ولذا؛ فمن هذه المعطيات النّاس في ما بينهم بالمعرفة يختلفون، وبها يخالفون بعضهم البعض، أي: إنَّ النّاس على المعرفة يخالف بعضهم البعض إذا أراد البعض أن يحرم الآخر منها، قال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ}[44].

ومع أنّ أساس الخلق الإنساني واحد فإنَّ الاختلاف والخلاف بينهم مؤسّس على التكريم للإرادة الإنسانية؛ فكان التسيير والتخيير بين القوّة والإرادة، أي: إنّ التسيير بالقوّة بيد الله حيث لا مخلوق يستطيع أن يغيّر أمر الله؛ فالليل والنّهار والشّمس والقمر والنجوم والحركة والسكون هي على القوّة بيد الله تعالى، أمّا التخيير فأمره بإرادة ورغبة المخيّر بين هذا وذاك. قال تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[45].

---

[44] البقرة 213.

[45] المائدة 48.

قال تعالى: {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا}[46] أي: إنّ أساس الخلق واحد كلّكم لآدم وآدم من تراب، ولكن بعد النبوءات والرّسالات السماوية الخالدة آمن من آمن، وبقي على كفره من بقي، وبين هذا وذاك نافق من نافق، وكذب من كذب، وبقي من بقي مؤمنا، وارتدّ من ارتد بعد إظهار الإيمان، ومن ثمّ: أصبح الاختلاف ضرورة من أجل استمرار الحوارات والمناقشات وعدم اليأس والقنوط، ولهذا، دائما الاختلاف الموضوعي من ورائه رسالة، أو فكرة ذات أهمية، ممّا يجعل البعض داعية لها، والبعض مدعوًّا إليها؛ فالاختلاف لم يكن من أجل القطيعة، بل من أجل الاتصال، والالتقاء، والتفاهم، والتوافق، والتعاون.

ومع أنَّ الاختلاف يقود إلى الالتقاء، لكن أثناء اللقاء قد يستوجب الموضوع الذي تلتقي الجماعات من أجله طرفا محايدا، ليكون حكما فيما هم فيه مختلفون، {فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[47].

نزلت الآية الكريمة موجّهة إلى سيدنا محمّدًا عليه الصّلاة والسّلام من أجل أن يقضي بين المختلفين في الأمر من يهود ومسيحيين ومسلمين، وقضاؤه حكم عدل لأنّه حكم بما أمر الله به، وليس بحكم رؤية شخصية؛ لأنّ المختلفين جميعهم يؤمنون بالله تعالى، ولكن يختلفون في مناهجهم وشرائعهم وأساليب حياتهم، ومن هنا؛ فالمختلفون لهم من المعطيات ما يجعلهم يلتقون أكثر مما يؤدّي بهم إلى الخلاف، مصداقا إلى قوله تعالى:

---

[46] يونس 19.

[47] المائدة 48.

{قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[48].

وعليه: فقيمة الاختلاف مثل قيمة النقود؛ فالنقود مع أنّها واحدة (نقودا) فإنَّ قيمها مختلفة من عُملة إلى عُملة، وهكذا هي القيم مع أنّها قيم، لكن معاييرها مختلفة من مجتمع لآخر؛ فما يقرّه مجتمع من المجتمعات ويعتبره مقدّرا لا يقرّه مجتمع آخر ولا يعتبره مقدّرا؛ فالرقص على سبيل المثال يقدّره أهل الغرب، ولكن العرب لا يقدّرونه حتى وإن رقص منهم من رقص. وكذلك الخمر، هناك شعوب لا تحرّمه، وفي المقابل هناك شعوب تحرّمه تحريما مطلقا كونها آخذة بأمر الله وطائعة له إرادة.

وعليه:

الاختلاف باعتباره قيمة لم يكن هو من حيث المفهوم بالخلاف؛ فالاختلاف يكون بين الأفكار، والمناهج، والاتجاهات والرّؤى، والقدرات، والاستعدادات والمواهب، والمهارات، والخبرات، والأديان، والأعراف، والقيم، ممّا يؤدّي إلى اختلافٍ بين المقتنعين بهذا والمقتنعين بذاك، أو بين المؤمنين بهذا والكافرين به. وفي المقابل الخلاف لا يكون

[48] آل عمران 64 . 67.

إلّا عليها، والفرق كبير بين الاختلاف الذي يكون بين القيم، والخلاف الذي لا يكون إلّا عليها.

فالاختلاف تنوّع معرفي بين البعض والبعض، ولأنّه تنوّع معرفي فخطوطه غير متوازية بالتّمام؛ فكلّ ما هو مشكوك في أمره أو تلحقه الظنون موضع اختلاف إلى أن يتمّ التبيّن الذي من بعده تُتّخذ المواقف، ثمّ تُصدر القرارات عن وعي ودراية تامّة، ويتمّ تحمّل المسؤولية المترتّبة على ذلك.

ويكون الخلاف بين الأنا والآخر على أشدّه إذا لم يقبل أحدهما بوجود مساحة للاختلاف بينهما، ولذلك؛ فالاختلاف يؤدِّي إلى الالتقاء والتحاور والتفاهم، وبخاصّة إذا تفهّم كلّ طرفٍ ظروف الطّرف الآخر، وقدّر مبرّراته التي كان اللبس والغموض مؤثّرا من مؤثّراتها.

أمّا الخلاف الذي يبلغ أصحابه القطيعة فلا شيء من بعده إلّا العفو، أو الصفح، أو التسامح، أو الصلح، أو الاستمرار في المقاتلة التي سيكون الزّمن كفيلا بإنهائها انتصارا وهزيمة.

الخلاف مُضادّة بين الأطراف التي لم تصل بعد إلى حلٍّ تأزّماتها وصِداماتها وخُصوماتها ونِزاعاتها، ولا شيء من بعده إلّا القتال إن لم يكن للعفو والتسامح والتصافح والتصالح مساحة.

أمّا الاختلاف فتنوّع طبيعي بين المكوّنات القيمية للأمم والشّعوب، كما تتنوّع اللغات والنباتات والمخلوقات، ممّا يجعل للاختلاف وظيفة وطبيعة وخصوصيّة، به تتنوّع الأفكار بالآراء، كما تتنوّع أساليب عرضها أيضا، ممّا يجعلها قابلة للامتداد من حيّزٍ فكري إلى حيّزٍ فكريّ آخر.

وعليه:

الاختلاف يستوجب استيعاب المتنوّع، والخلاف لا يعبّر إلّا عن مقاطعته، وبذلك، تتّسع الهوة بين الذين يسري الخلاف بينهم، فيزداد الصدام والخصام شدّة، وفي المقابل الاختلاف الموضوعي يدفع المتنافسين إلى ما يمكّنهم من تقديم ما لديهم من خبرة، وعلم، ومعرفة، ومهارة، من أجل بلوغ الأجود معياريًّا وأخلاقيًّا ووطنيًّا وإنسانيًّا.

ولذا؛ فالاختلاف ضرورة من أجل تعظيم القيم التي تمكّن من المنافسة المحفّزة على رفع المستوى العلمي، والمعرفي، والأخلاقي، والتقني، والفكري، كما يؤدِّي إلى التفاهم والتفهّم اللذين يخرجان المتأزّمين من تأزّماتهم، وكلّما ساد الخلاف بين النّاس طال زمن تأخّرهم وتخلّفهم، وفي المقابل، كلّما ساد زمن الاختلاف تنوّعت الآراء وتلاقحت بما يفيد الذين تتنوّع رؤاهم السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والنفسية، والذوقية.

ومن هنا: فالاختلاف يمكّن أصحابه من المقارنة المؤدّية إلى الاختيار الأفضل، وفي المقابل، أينما ساد الخلاف سادت المظالم وتضاعفت الخسائر.

الاختلاف كونه سُنّة من سُنن الحياة يؤدِّي إلى النّماء والتقدّم والارتقاء، أمّا الخلاف فيؤدِّي إلى الإحجام والتخندق تربّصا بالآخر، حتى يبلغ الحال بأطراف الخلاف إلى أشدّ التأزُّمات والآلام.

فالاختلاف عدم اتفاق يستوجب اتفاقا، فإن تمّ الاتفاق خرج المختلفون برؤية مشتركة وبدون مغالبة، وإن لم يتّفقوا سيكون السعي مستمرا من أجل معرفة علل الاختلاف. قال تعالى: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ

أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[49].

في هذه الآية الكريمة قال شعيب عليه الصّلاة والسّلام: (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ) ولم يقل (وما أريد أن أختلف معكم)؛ فالأوّلى: لا تستوجب خلافا مع ما بُعِثَ شعيب من أجله، ولهذا؛ فهو يدعو لما أُمِرَ به وهو الحقّ، ولأنّه على الحقّ فلا يمكن له أن يخالفه، وفي المقابل، سيختلف مع الكافرين حتى يؤمنوا بالحقِّ الذي بُعث به شعيب نبيًّا لله تعالى.

وعليه، يجب أن تُفخّم قيمة الاختلاف كونه حقّا يستوجب الاعتراف والتقدير والاعتبار، أي: يُفخّم عندما لا يكون الاختلاف غاية في ذاته، حتى تعود المنافع على جميع المختلفين في رؤاهم وأفكارهم، واتجاهاتهم وثقافاتهم، ولغاتهم وأعرافهم ومعتقداتهم، حتى يُصبح التمسّك بما هو مختلف من أجله تمسّكا بحقّ من ورائه مطالبون.

ولأنّ الاختلاف بين النّاس قاعدة منطقية، وأخلاقية، وإرادية، ودينية؛ فهو مشيئة من الله تعالى، ولو لم يرد الله النّاس مختلفين لجعلهم أمّة واحدة.

وعليه؛ فمفهوم كلمة خالف غير مفهوم كلمة اختلف؛ فخالف جاءت في محلّ مضمون كلمة أعترض، وفي المقابل جاءت كلمة اختلف في محلّ مضمون كلمة تنوّع أو تميّز، ولأنّ في الاختلاف تنوّعا وتميّزا؛ فأنا غير أبي وجدّي، وأبنائي غيري وغير إخوتي وأعمامي وبني وطني، ولو لم يختلف النّاس بما اختلفوا به لكانت الحياة ذات وجه واحد، وطعم واحد، ولون واحد، ورؤية واحدة؛ أي: إنّ الحياة وكأنّها بلا مستفزّات، وبلا

[49] هود 88.

مغريات، وبلا طموحات، وبلا منافسة، وبلا أمل، ممّا يجعلها حياة ملل ليس إلّا.

ولأنّ كلّ شيء مختلف عن الشيء الآخر كانت الفنون، والأذواق، والآداب، واللغات، والأساليب، والسبل، والمناهج، والشرائع مختلفة من أمّة لأمّة، ومن شعب إلى شعب، ومن فرد لآخر.

ولأنّ النّاس بين اختلاف وخلاف، كان التنوّع الممكِّن من التوافق، والتكيف، والوئام، والدفء الذي لا يستمدّ إلّا من الآخر المختلف عن الأنا، أي: لو لم يكن الآخر مختلفا عنك ما تمكّن من مدّك بالدّفء الذي كنت فاقده، ولذا؛ فالدّفء لا يتحقّق إلّا مع الآخر الذي أنت في حاجة إليه وإلى الدّفء المتولّد بينكما عاطفة ومحبّة ومودّة وألفة. وفي المقابل عندما يحلّ الخلاف بينكما تتأزّم الأمور، وقد تشتعل نيران الفتن، وقد يؤدِّي الأمر إلى ما يؤدِّي إليه ألما.

وعليه؛ فإنّ لكلّ من الاختلاف والخلاف قاعدة؛ فقاعدة الاختلاف تنصّ على:

(إذا كان رأيي على خطأ فرأيك على صواب).

أمّا قاعدة الخلاف فتنصّ على:

(رأيك خطأ ورأيي صواب).

وبمقارنة القاعدتين نتبيّن:

إنّ الاختلاف مؤسّس على قاعدة منطقية أخلاقية (إذا كان رأيي على خطأ فرأيك على صواب).

أمّا قاعدة الخلاف فمؤسّسة على الإكراه والإرغام (رأيك خطأ ورأيي صواب) وكأنّه يقول لك شئت أم أبيت.

وبناء على هاتين القاعدتين فالاختلاف لا يمكن أن يكون ضدّ الاتفاق، بل الاختلاف من أجل بلوغ الاتفاق ذاته. ومن هنا: يكون الاختلاف ضدّ الانفراد والتفرّد بالأمر المشترك حيث لا مغالبة، ويكون الخلاف من أجل التفرّد والانفراد بالأمر المشترك، أي: إنّ الاختلاف ضدّ الفردية والتفرّد بالأمر، أمّا الخلاف فمع الفردية والتفرّد بالأمر الذي فيه تكمن المغالبة، ومنه يتولّد الإقصاء.

الخلاف في دائرة المتوقّع لا يخرج عن السلبية كونه خلافا لما هو موجب {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ}[50]. ولأنّ النزاع دليل إثبات الخلاف فهو المؤدّي إلى الفشل، ومن هنا تكمن السلبية في الخلاف، وفي المقابل الاختلاف يخرج منها.

الخلاف والاختلاف بين إصلاحٍ وإصلاحٍ مساند:

الإصلاح فعل تستوجبه الضرورة؛ فلو لم يكن الفساد ما كان للإصلاح مكان ليتربّع عليه، وهكذا لو لم يكن الخلاف والاختلاف بين النّاس، ما كان للإصلاح مكانة بينهم.

ولأنّ الإصلاح لا يكون مطلبا إلّا بعلل الضرورة، لذا سيكون الإصلاح سائدا بسيادة الضرورة، ومن أكبر علل الضرورة الإفساد، ثمّ يأتي من بعدها الفساد، سواء أكان ماديًّا أم معنويًّا، ومن هنا؛ فالفرق كبير بين الإفساد والفساد؛ فالإفساد فعل عمدي تخريبي مقصود،

[50] الأنفال 46.

والفساد تفريط فيما هو موجود حتى يهلك، وكذلك؛ فهو بالزّمن وسوء الاستخدام يتهالك، ممّا يجعل الضرورة داعية الإصلاح.

ولأنّ الضرورة تتطلّب الإصلاح فالشّعوب المغلوبة على أمرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي من قِبل حكّامها الذين استولوا على السّلطة في أوطانهم بالقوّة، جعلت شعوب تلك البلدان يضطرون للتكيّف مع تلك النّظم المتحكمّة في أمورهم؛ فبضغوط الحاجات عليهم تصبح حياتهم حياة ملل، وتصبح أصواتهم لا تصل إلى الحكّام إلّا مطالبة بالإصلاح، من أجل تحسين أحوالهم الصحية والتعليمية والخدمية، وعندما تشتدّ الحاجات عليهم وتتأزّم أمورهم يتظاهرون، مطالبين الحكومة بالإصلاح. ومن ثمّ، تتكرر المظاهرات السلمية لتطالب الحكومة بالإصلاح ليس إلّا، ومع ذلك، فالأصوات المطالبة بالإصلاح لا تعلو لتلحق رأس النظام الذي هو علّة وراء كلّ علّة ظالمة، بل في كثيرٍ من الأحيان الأصوات تعلو مطالبة بالمحافظة عليه وسلامته من كلّ سوء.

لذا؛ فحدود المطالبة بالإصلاح لا تتعدى حدود الحكومة، ممّا يجعل رأس النظام في بعض الأحيان يصدر أوامره بتغيير وزير من وزرائه، فيأتي الوزير البديل متعهدا بالإصلاح، وهكذا في الأنظمة الفاسدة والمفسدة لا تتغير الوعود وإن تمّ تغيير رؤساء الحكومات، ومن هنا: فالشعوب المغلوب على أمرها هي دائما تحت الاضطرار تتكيف بتقديم المزيد من التنازلات لرأس النظام المفسد ولحكومته الفاسدة.

فالإصلاح مع أنّه علّة فإنَّه المطالب به من قبل المغلوب على أمرهم، ومع أنّهم يطالبون بالإصلاح، فإنَّهم لا يثقون فيه، ولكن كما يقولون ما باليد حيلة. فهم في ظاهرهم يطالبون بالإصلاح، ولكن في باطنهم يشتمون رأس النظام المفسد وحكومته الفاسدة، ولأنَّ الخائف المدرك

للأمر يعلم جيدا أنَّ الخوف مؤقّت؛ فهو لم يكن متسرّعا ولا مستعجلا، بل لثقته بأنَّ اليد التي امتدّت عليه ولا يستطيع قطعها، ليس له من بدٍّ إلّا أن يُقبّلها إلى أن يستطيع، وعندما يستطيع عُدّة وقدرة واستعدادا، سيكون الإعلان عن ذلك في الوقت المناسب بالنسبة له ضرورة، وستكون المعادلة الجديدة مؤسّسة على ردِّ الاعتبار، ونيل الاعتراف من الآخر، الذي كان غافلا عن حقيقة من أخافه ظلما، وإن لم تكن الاستجابة المرضيّة ستكون المواجهة معه حتميّة[51].

وعليه، لن يعد الإصلاح مطلبا، بل أصبح الحلّ هو المطلب المستوعب للإصلاح المساند. أي: لن تقبل الشّعوب الوقوف عند حدود المطالبة بالإصلاح، بل ستتجاوزه إلى بلوغ الغاية المأمولة (الحلّ) المقضي على المشاكل والتأزُّمات التي تواجه المواطنين تخطيطا، وبناءً، وإعمارا، وفلاحا.

ولذا؛ فالحلّ لا يلغي الإصلاح المساند، بل إنَّه ألغى من القواميس السياسية والاقتصادية والاجتماعية أن يكون الإصلاح غاية في ذاته؛ ذلك الإصلاح الذي كانت من أجله تحدث بين الحين والحين انقلابات العسكر، ونضالات المثقّفين والمفكّرين، سواء أكانوا منظّمين في أحزابٍ، أم أحرارا مستقلّين.

فالإصلاح الذي كان أملا، وكانت الدّول الحرّة تحرّض على بلوغه، وتطلب من الأنظمة المتخلّفة الأخذ به، لم يعد في هذا القرن أمل؛ فالأمل دائما هو بلوغ الحلّ.

---

[51] عقيل حسين عقيل، أسرار وحقائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م، ص 270.

وعليه:

لقد بلغت شعوب العالم الحلّ بعد أن تجاوزت ذلك التوقّف عند حدود الإصلاح، الذي طوت صفحاته ووضعتها في قُمامة التاريخ، وحلّت محلّه الإصلاح المساند ظهيرا للحلّ؛ فالإصلاح المساند هو الإصلاح الذي لم يعد غاية في ذاته، بل دائما الغاية هي بلوغ الحلّ في كلّ شيء من أجل التقدم، والرّقي العلمي، والثقافي، والحضاري، والذوقي؛ ولتوضيح دلالة الإصلاح المساند أضرب مثلا لمشكلة المواصلات في دولة التوافق التي ستكون بين حلٍّ وظهير حلٍّ؛ فالإصلاح المساند يستوجب إصلاحا لوسائل النقل كلّما تعطّلت، وليس إهمالها لتصبح عبئًا على كاهل الميزانية العامّة للدّولة، أمَّا الحلّ فهو المستهدف حلّ مشكلة المواصلات، من حيث فكّ التأزّمات في الطرق، والنقل، والحركة، وتيسير السير، والتنقّل كسبا للوقت، مع تقليل التكاليف الإدارية المسيّرة لذلك، ومن هنا: تصبح أمور المواصلات حركة ميسّرة وليست حركة معسّرة.

وهكذا، على سبيل المثال: يصبح التعليم حلّا عندما يتصدّر حركة التغيير، ويُحدث النُّقلة إلى ما هو ممكن في دائرة المتوقّع وغير المتوقّع، أمّا الإصلاح المساند للتعليم فهو الإقدام على تغيير المقررات والمناهج بما يواكب الجديد المفيد، إلى جانب صيانة المعامل والمختبرات والمباني من أجل تهيئة المناخ المناسب للمتعلمين لتلقي العلوم والمعارف الواسعة، دون غفلة عن تأهيل الفنيين والباحثين ومساعديهم بما هو أكثر معرفة وعلما وجودة؛ فبلوغ الحلّ يجعل عجلة التقدّم في حالة حركة مستمرة، بين ما هو أهم، وبين ما هو أكثر أهمية، وبذلك يصبح الأكثر أهمية هو الحلّ، ويصبح كلّ مهم مساندا له.

فالإصلاح لم يعد هو القاعدة كما كان مأمولا من المطالبين بأقل الحقوق، بل أصبح هو الاستثناء وفقا للضرورة؛ فالقاعدة في هذا العصر هي بلوغ الحلّ.

ولأنَّ لكلِّ قاعدة استثناء، إذن لكلّ حلٍّ ظهيرٌ يسنده عند كلِّ ضرورة، وهو الإصلاح، أي: إنَّ الإصلاح هو المعين للحلّ، ولأنَّه المعين؛ فهو لم يكن الأساس (القاعدة)، بل هو المتوقّع لما هو متوقّع من فساد، وهلاك بأسباب الاستخدام، أمَّا الحلّ فهو المنتج الجديد المتطوّر المضاف لما سبق، الذي كلّما فسد وأمكن إصلاحه وجب الإصلاح المساند للحلِّ، ومن هنا؛ فالنّاس دائما يتكيّفون مع الإصلاحات، ولكنّهم لا يتوافقون إلّا مع الحلول.

وعليه:

فإنَّ دولة التّوافق هي الدّولة المتجاوزة لزمن الانتكاسات، وزمن القبول بالإصلاح غاية؛ فالتّوافق لا يكون بين النّاس قيمة سائدة إلّا عن إرادة، ومتى ما بلغ النّاس التوافق بلغوا الحلّ الذي يجد الإنسان نفسه به مقدّرا ومعتبرا؛ فقمّة السُّلطان عندما يكون صوته صوت النّاس، يكون هذا الصّوت دليل التّوافق التَّام بين الشّعب وقمّة السُّلطان، وعندما تختلف الأصوات بين الشّعب وقمّة سلّم السُّلطان، لن يعلو صوت على صوت الرّفض والمواجهة والثورة، التي بها يُنقل النّاس من التسليم بغير حقّ إلى العمل المحقّ للحقِّ، وبذلك تنتهي الخلافات بسيادة المودّة والمحبَّة بين النّاس، ولكن إنْ سادت المظالم بينهم وعمّت تماثلوا في ارتكاب المفاسد، ولهذا؛ فالمظالم قد يتماثل النّاس في ارتكابها، كما هم يتوافقون في القيام بأعمال الإصلاح، والإعمار، والفلاح، والبناء.

ولأنَّ دائما أسباب الخلاف علل من ارتكاب المظالم، إذن لا يمكن أن ينتهي أو يزول الخلاف ما لم تنتهِ وتزول المظالم.

وهنا؛ فالإصلاح المساند إصلاح توافقي كونه لا يكون إلّا تحت مظلة الحلّ، الذي لا يسود إلّا بسيادة الشعوب وزعامتهم، إذ لا زعامة بعد بلوغ الحلّ إلّا للشعوب صاحبة السيادة.

فالزّعامة في دول الحلّ والإصلاح المساند، زعامة شعب بأسره، وهي الزّعامة التي لا تكون إلّا زعامة تعاقدية، وعن إرادة حرّة بين أفراد المجتمع وجماعاته، فيها الأمر كلّ الأمر بيد الشّعب؛ ممّا يجعل سيادة الشّعب وحدها هي الزّعامة والسيادة، ويجعل الشّعب في دولة التوافق هو الزّعيم السيّد، ولا زعيم ولا سيّد غيره.

ومن ثمّ؛ فالزّعامة المثلى في الدّولة الحلّ والإصلاح المساند هي الزّعامة التي تجسّد القدوة الحسنة، من حيث كونها حسنة الحُجّة، وحسنة القول، وحسنة الفعل، وحسنة العمل، وحسنة السّلوك، وحسنة المظهر.

ولأنّ علاقات قويّة تربط الإصلاح بالتكيف، وتربط الحلّ والإصلاح المساند بالتوافق، لذا؛ فالتكيف لا يكون إلّا للضّرورة، والتّوافق لا يكون إلّا مع الوجوب (وفقا لِما يجب).

الخلاف والاختلاف بين تكيّف وتوافق:

التوافق قيمة حميدة لا تسود بين النّاس إلّا بعد اختلاف وعن إرادة؛ فحيث ما كان التوافق بين النّاس قيمة مقدّرة ومفخّمة، كان الانسجام والتفهُّم بينهم سائدا دون تقديم تنازلات، إلّا بما هو مرضٍ ولو بعد نقاش وبيّنة، ومع أنَّ التوافق قيمة مأمولة، فإنَّه من حيث المفهوم لم يكن الاتفاق؛ فالاتفاق مع أنّه إرادي، فإنَّه يمكن أن يكون بين الأعداء

كالاتفاق على وقف إطلاق النّار في حالة ما إذا كان بينهم اقتتال، وهذا لا يعني أنَّهم متوافقون؛ فالتوافق لا يكون إلّا على رؤية وقضايا ومواقف جمعيّة، ممّا يجعل البعض يتوافق مع القيم ولا يتّفق مع أصحابها.

التّوافق قيمة اجتماعية وإنسانية بلوغها ممكنٌ، ولكنّه ليس سهلا؛ فمن بلغه تجنّب المظالم، وأمن الآخرين، واطمأنَّ معهم، والتّوافق لا يكون إلّا بتقارب المطلب مع الرّغبة، وتقارب الحاجة المتطوّرة مع مشبعاتها المتنوّعة وظروفها الموضوعيّة، وهو المحقّق للرّضا دون تقديم تنازلات بغير حقّ.

ومن ثمّ، عندما تُفخّم قيمة التّوافق تحقّق الانسجام الإرادي بين النّاس المختلفين، ويصبح الانسجام سائدا بين الأنا والآخر، وتصبح المشاركة بينهم موجبة. ولكن هذا لا يعني ألّا يكون التّوافق سالبا؛ فمثلما يتوافق الإصلاحيّون، كذلك يتوافق المفسدون، ولكن الفرق بينهما الموضوع والغايات التي من ورائه.

ولأنَّ التّوافق مع الإيجابيات توافق مع الحقّ؛ فأصحاب الحقّ لا يُقرُّون إلَّا حقّا وعدلا، وبكل إرادة؛ فالذين يوفون الكيل والميزان بالقسط عند كلّ موزونٍ، ولا يبخسون النّاس أشياءهم، هم المتوافقون مع الحقّ وموجبات إحقاقه، ومع أنّ التّوافق واحد فإنَّ للتوافق أنواعا موضوعية كتوافق الزّمن مع الزّمن، وتوافق المكان مع المكان، وتوافق الظرف مع الظرف، وتوافق الودِّ مع الودِّ، وتوافق الظلم مع الظلم، وهكذا فإنَّ التّوافق لا يتعدد ومواضعه ومعطياته تتعدد، حتَّى في القصاص لا حلَّ للمشكل ولا حكم فيه عدلا إلّا بالتّوافق، {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ

وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ}[52].

ومع أنَّ التوافق لا يكون توافقا إلّا بأسباب الاختلاف، فإنَّ الاختلاف لا يفسد التوافق، بل الذي يفسده هو الخلاف الذي إن سادت عِلله بين النّاس تنازعوا، وتصادموا، وتقاتلوا، وتفرّقوا شيعا وأحزابا.

ولأنّ الاختلاف تنوّع فالتنوّع هو المحفّز على التوافق المنظم للعلاقات بين النّاس؛ ممّا يجعل الاحترام بين المختلفين سائدا عن إرادة، سواء أكانوا كبارا أم صغارا، أو كانوا مسؤولين أم رعيّة.

ولأنَّ الخلاف لا تنوّع فيه، فبه يستغول البعض على البعض، ولكن إن استقوى واستغول أحد الأطراف على الأطراف الأخرى حتى وإن بدا له منهم القبول ظاهرا؛ فلا ينبغي له أن يصدّق ما هو ظاهر، ذلك لأنّ ما هو باطن أعظم، غير أنّ أصحابه مستظلون بمظلة التكيّف حتى تتاح لهم الفرصة السانحة للاقتناص.

ولذا؛ فالعلاقات التوافقية في دولة التوافق ينبغي أن تكون علاقات تراتبية بين الكبير والصّغير، وبين صاحب الفكرة، وصاحب الخبرة، وصاحب المهارة، وصاحب الحُجّة، ومن هنا: يأخذ أصحاب الكفاءات العالية مكاناتهم، أمّا العلاقات في النّظام الذي يوجد على حساب الدّولة بأسباب قوّة الشوكة (العصبية) فلا يلتفت للكفاءات، ممّا يجعل أصحاب الكفاءات غرباء في أوطانهم، ويجعل الخلاف بينهم على أشدّه.

ومن ثمَّ عندما تُنظم العلاقات الاجتماعية وفقا لرؤية قوّة الشّوكة؛ فلا يمكن أن تُبنى مؤسّسات وطنية، وفي المقابل، عندما تنظّم العلاقات

[52] المائدة 45.

الاجتماعية وفقا لرؤية مؤسّسات الدّولة؛ فلن يكون هناك ولاء إلّا للوطن، ومن ثمّ فدولة التوافق هي دولة التنوّع الممكّن من المزيد المعرفي، والممكّن من بلوغ الغايات الوطنية.

فعندما تُفخّم وتعظّم القيم الحميدة بين النّاس والشّعوب؛ فبالضرورة سَيُفخّم ويُعظّم أصحابها في أوطانهم، وعندما تقوّض القيم الحميدة فلابدّ أن يجد المواطنون أنفسهم في أوطانهم مقوّضين.

ولأنّ التكيّف لا يكون تكيّفا إلّا بتقديم شيء من التنازلات كثرت أم قلت، فإنّ تقديمها يجعل من قُدّمت له في دائرة المتوقّع راضيا، وقد يكون مطمئنا، ولكن دائما الجمر الذي تحت الرّماد مع أوّل هبّة ريح يشتعل في الغابة، وهنا، فالأنظمة التي رَكِب أصحابها المصاعد إلى أسطح العمارات، ولم يضعوا في حسبانهم أنّه لا نزول إلّا من خلالها؛ فهم صَعدوها بلا سلالم، وبقوا هناك إلى أن أُسقط بهم أرضا.

وعليه: فإنّ القمم السلطانية في هذه الدّول التي أطلق عليها (دول الرّبيع العربي) قد لعبت برؤوسها، ولم تلعب بأذيالها؛ ومن هنا: كان الفأر أكثر من قممها فطنة وذكاء؛ فالفأر ذات مرّة سُئل:

لماذا أيّها الفأر عندما تشعر بخطر تبدأ اللعب بذيلك؟

قال:

ألا يكون من الأفضل لي أن ألعب بذيلي بدلا من أنْ ألعب برأسي؛ فأنا عندما ألعب بذيلي أفكر، ولكن عندما ألعب برأسي يُلعب بي.

وعليه؛ فمن أجل ألّا يتكرر اللعب بالرؤوس؛ فينبغي أن تؤسّس دولة التوافق التي لا يكون فيها أحد مقصيً، ولا محرومًا، ولا مغيّبًا عن ممارسة حقوقه، وأداء واجباته، وحمْل مسؤولياته، وهي الدّولة التي تبلغها الشعوب

بعد نُقلة تعبر بها التوقّف عند حدود الإصلاح الذي كان مقبولا لحدٍّ ما من أجل فك التأزُّمات، إلى بلوغ الحلّ السياسي والاقتصادي والأخلاقي. وهي الدّولة التي لا قيود فيها على الإرادة؛ فالشّعب وحده قادر على أن يختار قمّة لإدارة سُلطانه، وفقا لدستور مُقرٍّ ومعتمد من قِبله. ومن ثمّ: تعد دولة التوافق هي دولة تحقيق النُّقلة إلى كلّ ما من شأنه أن يحقّق التقدّم.

الإرهاب إعداد عدّة

الإعداد جهد يبذل بعد تهيئة لأدائه رغبة وإرادة، وهو المهيّئ للمادّة المراد إعدادها وتوفّرها وعرضها منتظمة ومصنّفة وفقا للنوع والجنس والجودة والفاعليّة والعطاء المؤثّر إيجابيًّا على أرض الواقع؛ ولذا فالإعداد للملاءمة المناسبة للمطلب، والحاجة من أجل تحقيق الأهداف المرجوّة وبلوغ الغايات المأمولة.

أمَّا إعداد العُدّة فهو ما يُبذل من جهد فكري وعقلي وتدبُّر من أجل العمل على توفير المال والعتاد والوسائل الممكّنة من أداء الفعل وحصر البشر القادرين على تحمُّل الأعباء وفقا للقدرة والاستطاعة، ثمّ تدريبهم وتعليمهم وتأهيلهم؛ لاستيعاب العُدّة المتنوّعة والمتجدّدة والمتطوّرة.

إذن: العُدّة هي تلك الوسائل المتطوّرة عبر الزمن، التي يُعتمد عليها ماديّا في إدارة القتال أو الحرب، وهي التي تولّد في أنفُس الأعداء الرّهب، بها ينال التقدم وتخاض المعارك ويتحقّق النصر، وكلّما كانت عالية التقنية وعالية الجودة كانت فعّالة في الميدان، وذات أثرٍ بالغ الأهميّة في الخصم وفي الإعمار والبناء والإصلاح؛ ولذا فكلّما أُعدت وتمّ إظهارها استعراضا أمام العدو أرهبته وحقّقت الهيبة لمالكيها ومستخدميها والمرابطين بها على جبهات المواجهة وحدود البلاد.

ولذا فالإعِداد ليس التهيئة، بل الإعداد سلوكي فعلي مادّي، أمّا التهيُّؤ فليس بمادّي، الإعداد ترتيب متكامل لِما يجب إظهاره أو الإقدام عليه؛ فالإعِداد يحتوي على الترتيب والتنظيم والتجهيز، قال تعالى: {فَلَمَّا

جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ}[53].

ولأنَّه إعداد؛ فهو يحتوي على التنظيم والتدريب والتمرُّن على استخدامات العُدّة والتمرّس عليها بما يُمكّن المقاتلين في ميادين المعارك القتاليّة من حُسن الأداء مع النيل من الخصم وإجباره على الاستسلام أو التفاوض الذي يمكِّن كلّ صاحب حقّ من حقّه ويعيد الحقوق المسلوبة لأصحابها بالقوّة.

إذن: هناك تلازم علائقي بين إعداد العُدّة، والتمرّن والتدريب عليها، ومن يغفل عن ذلك، عندما تُكتب الحرب عليه سيفاجأ بأنَّ العُدّة فاقدة للمقدرة على حسم الصراع؛ فالصراع والقتال لا تحسمه العُدّة وإن تطوّرت، بل يحسمه من يدير العُدّة بجدارة وتفوّق يُمكِّن من الفوز ويُحقِّق النصر ويُرهب الأعداء؛ ولذا فالتمرّن والمراس ضرورة لإدارة المعارك بتفنّن ومهارات عالية.

إنَّ درجة الاستعداد المترتّبة على الإرادة والتهيّؤ تقوى بقوّتهما وتضعف بضعفهما، فإنْ قويت حقّقت نصرا، وإن ضعفت أدّت إلى هزيمةٍ على المستوى الفردي أو الجماعي، مع أنَّ نتائجها على المستوى الفردي والجماعي قد ترتبط بأمرٍ خاص، ولكن على المستوى المجتمعي نتائجها تكون من أجل الجميع وبها تتحقّق الآمال ويُصنع المستقبل المشترك الذي به تصان حدود الوطن وتُرسَّخ الهوية العامّة للأمّة.

ولأنّ الإرهاب مأمور به من الله تعالى؛ لذا يُعدّ الإقدام عليه فعل مرضٍ لمن آمن وأسلم وجهه لله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ

[53] يوسف 70.

وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ}[54].

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ) جاءت أمرًا من الله تعالى للعباد؛ ولذا فإنَّ إعداد العُدّة لمواجهة من يشكّل خطرا على الذين أمنوا غايتها تحقيق السلام الذي به تطمئن الأنفس، وتصان البلاد وأعراض العباد؛ فقوله: (وَأَعِدُّوا) هي: أمرٌ مطلق مع وجوب السرعة في الأخذ به وتنفيذه، ولذلك فإنّ الأخذ به طاعة لله تعالى الذي أمر عباده بإعداد العُدَّة التي تُرهب الأعداء الذين يشكّلون خطرا على حياة النّاس وممتلكاتهم وعلاقاتهم وفضائلهم الخيّرة وقيمهم الحميدة اجتماعيا وإنسانيا.

وقوله: (مَا اسْتَطَعْتُمْ) أي: يجب أن يُعدّ ما يُمكن أن يُعدُّ من عُدّة وفق الاستطاعة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ ولهذا يجب العمل بكلِّ جهد وبكلِّ الوسائل الممكّنة من امتلاك القوة وتوفّرها والتدرُّب عليها والمران من أجل إدارتها حتى تتيسّر استخداما إذا ما كُتبت الحرب أو أوقدت نار الاقتتال.

ومع أنَّ الاستطاعة محدودة فإنَّ ورودها في هذه الآية الكريمة جاء وكأنَّها بلا حدود (مَا اسْتَطَعْتُمْ) أي: إلى النهاية التي لا تنتهي بعصرٍ من العصور، بل النهاية التي تتجدّد في كلِّ عصر إلى النهاية.

وقوله: (مِنْ قُوَّةٍ) مع أنَّ (مِن) بعضيّة فإنَّ ورودها هنا جاء للتنوُّع أي: تنوع القوَّة الواجب تنوّعها وإعدادها لإرهاب العدو؛ ولهذا جاءت الاستطاعة غير محدّدة، وكذلك القوّة غير محدّدة: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) أيَّة قوّة.

---

[54] الأنفال 60.

وعليه: فإنَّ تنوُّع الصناعات الحربيّة وتطوّرها وتحسين جودتها والتدريب عليها ضرورة لإرهاب الذين يُخِيفون العباد تهديدا ووعيدا وظلما وعدوانا.

إنَّ معظم شعوب العالم الضعيف تمَّ احتلال أراضيهم وتمَّ تقتيل الملايين منهم وتهجيرهم بغير حقّ، ومع ذلك استشهد أكثرهم في سبيل الحريّة وتحرير الأوطان، فهؤلاء الذين عانوا ويلات العذاب أنفسهم ممتلئة خوفا ورعبا من أولئك الذين سبق لهم أن احتلوا بلدانهم وقتّلوا من قتلوا من أجدادهم وآبائهم، وشرَّدوا من شرّدوا من إخوتهم، وهتكوا أعراضهم، وشوهوا ثقافاتهم، ودنسوا معتقداتهم؛ فكيف لهم أن لا يعدُّوا العدّة التي تحميهم من تكرار الاحتلال والاقتتال والاستعمار مرة ثالثة ورابعة وخامسة وإلى النهاية!

وقوله: (وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) جاءت (رباط الخيل) وكأنَّها لم تكن من ضمن القوّة التي نزلت في قوله: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)، في هذا الأمر نقول:

الله تعالى لم يقل: (ومن الخيل).

بل قال:

(وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ).

ولذا فالخيل في حدِّ ذاتها هي قوّة من مجموع القوى المتعددة التي يحتويها قوله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ).

أمّا الرِّباط؛ فهو الذي يطوّق به من يريد قيده أو محاصرته، ولأنَّ الخيل لوحدها لا تستطيع أداء هذه المهمة؛ فنسب الأمر لمن يستطيع أن

يفعل ذلك، وهم الفرسان الذين يمتطون الخيل وهم معدّون ومستعدون لخوض المعركة إن كُتبت عليهم كرها.

وعليه: (وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) هذه كلمات ثلاثة مسبوقة بحرف عطف (و) الذي به مُيِّزَ الرباط عن القوَّة، أي: إنَّ الرباط هو الذي لا يتمّ إلا بخطة وقرار وتدبّر وكيفية مناسبة، بها يتمّ استعراض القوَّة المحمولة على ظهور الفرسان الذين هم مرابطون على ظهور الخيل المرابط بها على الحدود، وهؤلاء الفرسان هم (المعدّون والمدرَّبون والمتأهبون للإقدام متى ما صدر أمر التقدّم إليهم).

وعليه: (وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) لا تعني كل القوّة، بل تدل على القوّة المعدَّة والمستعدة للاستخدام وهي الأمر الواقع أمام المشاهدة العينية والملاحظة العقليّة والمعرفيّة التي بها يُدرك ويُميّز ما يُرهِب عمّا لا يُرهِب.

ولذا؛ فإنَّ إعداد العُدّة المستطاعة يجب أن لا يفهم منه بشكل خاطئ أو منحرف دعوة إلى رفع العتب وإبعاد اللوم، كما فُهم الإرهاب من البعض على أنّه الاعتداء؛ لنشر الخوف والرّعب دون النظر إلى حقيقة مفهوم الإرهاب، فيسوق حجّة أخرى بفهم خاطئ أيضا، كمن فهم قوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}[55] على أنّها دعوة للاستكان والتواكل، فالله تعالى دعا إلى التوكّل ولم يدعُ إلى التواكل، وعلى هذا يجب أن يَسَع النفس ما وسع الأنفس الأخرى في بذل أقصى طاقة في إعداد العدّة المستطاعة باستنفاذ الجهود والطرق والوسائل والأدوات، ومن هنا: يكون إعداد العدّة لمنع العدوان بما تحقق العدّة والاستعداد من إرهاب، والذي يأخذ بالأسباب فقد وصل إلى الاستطاعة، فإن لم يستطع أن يعد العدة الكاملة التي توازي الآخر بعد الأخذ بجميع الأسباب، فقد أدرك

[55] البقرة 286.

رفع التكليف بما ببذل من جهد دخل ضمن الاستطاعة التي تتكلفها النفس، وإن كانت هذه العدّة الإرهابية بما يرضي طموح الاستعداد، فهي من أجل دفع العدوان ومنعه، لا من أجل المبادءة والمبادرة بالعدوان.

وعليه أتساءل:

هل العدّة هي التي ترهب أم الإعداد؟

إنّ العدّة تُعد من قبل الإنسان، وإن كانت العدّة والإعداد يجب أن يكونا متلازمين؛ ليصل المجتمع إلى المرحلة الإرهابية، فإنَّ العدّة وإن توفّرت فإنّها تبقى في حيّز الموجودات المادية؛ ذلك أنّ العدّة مادية بأيّ شكل كان، فلو كان هناك أكداس من الحديد بشكله المعروف كمادة أوّلية، فإنّها لا تدخل الرهبة على أحد مهما تعاظمت، كمن يمتلك أموالا طائلة يلهو بها في صالات القمار، فمن أين تأتي الرهبة لهذا المال!

ولذا فإنّ إعداد الحديد والمال والمياه والأرض والإنسان، هو الذي يمنحه الجانب الإرهابي، وذلك عندما تحوّل المادة بإعدادها إلى استخداماتها بقرار عقلي نابع عن فكر، لا نقصد الأسلحة فقط، وإن كانت جزءا من الصناعة والزراعة والتنمية والخدمات التي لا تصل إلى مقاصدها الإرهابية إلاّ عن طريق التعليم والتدريب والتنظيم والتأهيل؛ ولذا (فأعدّوا) تبدأ من التهيؤ مرورا بالإعداد والاستعداد والتأهب، وكلّ ذلك مرتبط بالإنسان الذي ليس له غنى عن العدّة المحققة للغاية.

والإعداد لا يكون إلَّا بما يبذل من جهود ويُحقِّق أهدافا فكرية وعقلية ونفسية ومعرفية وتنظيمية تجسّد قوله تعالى: (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة).

فالأخذ بهذه المعطيات الإعدادية وتجسيدها إنسانيا في الارتقاء بالإنسان إلى هذا المستوى، يجعله على قدر المسؤولية؛ وبذلك يقضي الإعداد على الوهن والضعف والتخاذل، ممّا يفضي إلى رفع الهمم والارتقاء بالنفس؛ وبذلك تنزاح عن النفس المذلة والهزيمة والخنوع، وتتجاوز الأسف والندم الذي يستحكم فيها؛ فالذي كان يحيلها إلى نفوس هامدة تتحوّل بالإعداد إلى قدرة قابلة على مواجهة التحدّيات، ولا نقصد بالمواجهة ساحة القتال أو الحرب، وإنّما مواجهة الواقع بما يحمل من مفاجآت حربية وسلمية واقتصادية وسياسية واجتماعية؛ إذ إنّ تمكّن الإيمان بالإعداد يقينا يخلق إنسانا له القدرة على التصرّف حيال الأحداث ليصل إلى درجة: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[56] التي تعزّز الثقة بالنفس؛ فتأخذ بأسباب التغيير التي تنعكس على الواقع بمعطيات إرهابية تثبت حقّ الأنا أمام الآخر، وتعترف للآخر بحقوقه.

فالإعداد على مستوى الذات الإنسانية بهذه الجوانب، يدفع إلى الصحوة من غفلة الانكفاء على الذات والانفتاح على الآخر بما لا يمسّ الأصول والثوابت ضمن المنطلقات الإرهابية المشروعة في التأهّب لمواجهة العدوان حال وقوعه بكلّ قوّة متاحة؛ ذلك أنّ الإعداد والعدّة لمواجهة الأخطار المحتملة يتمّ به استيعاب الواقع والمحيط الخارجي، ثمّ الصحوة والانتباه إلى أنّ أقوياء العالم الذين سيطر الظلم عليهم لا يرحمون الضعفاء، وأنّ المراهنة على جمعيات حقوق الإنسان والهيئات الدولية مجازفة لا تُمكّن من بلوغ الحلّ.

---

[56] آل عمران 139.

إذن: الإعداد دعوة أخلاقية في تحقيق الإنصاف الذي يؤمّن التوازن بين الأفراد أو المجتمعات، ومن ثَمّ يكون الإعداد في هذه الجوانب دافعا للصحوة التي تحقّق المفاجأة في دائرة الممكن غير المتوقع؛ ولذا فإنّ(أعدّوا) تشمل الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولما كانت العدّة من الأشياء المادية فنادرا ما تحقّق المفاجآت؛ لأنّها ضمن مجال الإحصاء والعَدّ، لأنّها أشياء حسيّة ومدركات مادية يمكن لأيّ أحد أن يقف عليها من خلال المعلومات، سواء أكانت هذه المعلومات عن طريق رصد الاستيراد والتصدير والتنمية والخدمات، أم أنّها معلومات يتمّ الحصول عليها بطرق متعددة سواءً أكانت مشروعة أم أنّها غير مشروعة.

وعن طريق هذه المعلومات يمكن إحصاء العدّة المادية المعدّة والتعامل معها بأساليب تؤدّي إلى إبطال مفعولها أو منع مفاجأتها. أمّا الجانب الآخر من (أعدّوا) الذي يتّسع مجاله في الجانب العقلي ليشمل الفكر والمهارة والتدريب والتخطيط الذي يخرج عن الحيّز المادي ويكمن بين العقل والشعور وردّة الفعل، الأمر الذي يجعله ممكنا غير متوقّع بما يحقّق من مفاجآت، وهذا الجانب من الصعب إحصاؤه أو الوقوف على حيثياته الكامنة في الفكر، بحيث لا تظهر نتائجه إلاّ بعد تحقيق المفاجأة، وهو أعلى أنواع الإعداد.

ولذا: فالإعداد الجيد على المستوى الفكري والنفسي هو الذي يحقّق مفاجأة العدّة المعدّة، ومن جانب آخر: إذا كانت العدّة شمولية لا تقتصر على السّلاح ورباط الخيل، وأخذت البعد الحقيقي للاستطاعة (ما استطعتم) ليس بمعنى التكليف التواكلي، وإنّما التكليف التوكّلي، فسيدخل في الاستطاعة الخزين الاستراتيجي من الطعام والشراب والسّلاح ومقوّمات الاستمرار ليس على المواجهة فحسب، وإنَّما

الاستمرار على إدامة الزخم في التحكّم بدورة عجلة الحياة ضمن الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ لأنّ الماء والغذاء من أهم مكونات الاستطاعة ويتبع ذلك اللباس والمسكن والخدمات ووسائل الاتصال والمواقع البديلة والتمويه وحفر الخنادق والأنفاق؛ كي يصبح من السهل تحقيق المفاجأة، وبالتالي التمكّن من تحقيق الأهداف.

فهذا الإعداد هو مرهب للعدو، ولا يعني الاعتداء عليه بحال من الأحوال، بل يجعله في موضع حدوده التي لا يستطيع معها أن يقوم بالاعتداء أو يمارس العدوان؛ فامتلاك العدّة بالإعداد ومن ضمنها السّلاح والعتاد الحربي توهن الخصم قبل أن ينفِّذ اعتداءه، وتدعوه لإعادة حساباته وتكبح جماحه؛ فيكون هذا النوع من الإرهاب داعيا إلى السلم ومانعا للقتل والتدمير، والدعوة إلى إعداد العدّة التي وردت إرهابا للعدو في مواضع كثيرة من الذكر الحكيم؛ فهي تختصّ بمنع حدوث العدوان، وهي ضرورة تقتضيها الحياة لاختلاف الأديان والقيم والأعراف والمعتقدات، وكذلك اختلاف البيئة والجغرافيا والموارد الطبيعية والتفاوت بين الغنى والفقر، ونقص الحاجات والسعي إلى إشباعها، كلّ ذلك يؤدِّي إلى نشوء صراعات تدفع بعض المقتدرين إلى مباشرة العدوان؛ ليستولوا على ما ليس لهم به حقّ؛ ولذا يجب أن لا يختلف اثنان على مشروعية العدّة والإعداد إرهابا لا عدوانا؛ ولذا فإنّ ذلك هو موضع اتفاق لجميع البشر؛ فمن حقّ كلّ أمَّة أن تمتلك القوّة لتدفع عن نفسها الخطر إن هي تعرضت للخطر أو التهديد؛ ولذلك فالدفاع عن النفس يقتضي إعداد العدّة.

وهنا يتّضح الإرهاب بمفهومه الردعي، وأنّه لا علاقة له بالعدوان إلّا من خلال منع وقوعه.

أمَّا تفسير ما يحصل الآن في العالم من تفجير وترويع للآمنين وسفك للدّماء باسم الإسلام أو ما يُرمى به ومن ثمّ وصفه بالإرهاب؛ فهو تصرُّف إمّا صادر عن إنسان أساء فهم الإسلام ونصوصه ممّا ينبئ عن وجهة نظر قاصرة وفكر ضحل، وإمّا أنّه نتاج لفكر يتستَّر بالإسلام، وإمّا بدفع من جهات لها مصلحة في هذه الأعمال والتصرّفات، ولذا وجب التمييز بين المنهج وأخطاء المنتسبين إليه، وبين المنهج والممارسات التي تقع باسمه، فهذا ليس من الإعداد في شيء.

وعليه: فإنّ إعداد العُدّة لا يكون إلّا لإرهاب العدو ومنعه من العدوان، ويشمل ذلك استثمار الأرض وزراعتها وتقديم الخدمات والنهوض بالصناعة، لا أن تمدّ الأيدي للآخرين وإن كان استيرادا بمقابل سابق الدفع؛ ليأكلوا من إنتاجهم ويلبسوا من مصانعهم ويتطفّلوا على موائدهم، على الرغم من وجود القوّة المادية والأرض المهيأة والعقل المستقبل للفكرة التي تتبنى الإعداد وتنهض به، بحيث تُمكِّنَ الأفراد من أن يكونوا قادة بدلا من كونهم عالة، وأن يكونوا صنّاعا للحضارة وليسوا قرّاءً عنها، وطالما أنّ الأمر كان ممكنا لغيرك؛ فبالضرورة لن يكون مستحيلا لك؛ ذلك أنّ الذين يرون استحالة اللحاق بقافلة الحضارة؛ لحجم المشقة وبُعد المسافة وعمق الفجوة، قد تركوا إعداد العدّة وغفلوا عن أهميتها.

إعداد العُدّة يُرهب المُخِيفين ويقضي على الخوف:

المخيف هو الذي يمتلك مقاليد القوَّة وأدواتها، والخائف هو الذي يَفتقد مقاليد القوَّة وأدواتها؛ ولذا فالذي يمتلك أدوات القوّة المتنوّعة والمتطوّرة ويجتهد في تطويرها إضافة وتنوعا سيضل دائما مخيفا لمن لم

يمتلكها، أو من لم يواكب حركة تطوّرها، والذي لم يسع لذلك سيظل دائما خائفا حتى يبلغ امتلاكها، ويواكب حركة تطويرها وتطوُّرها.

ولسائلٍ أن يسأل:

كيف لإعداد العُدَّة أن يُرهب المخيفين ويقضي على الخوف؟

أقول:

بما أنَّ المخِيف من سبق بإعداد العُدّة المخيفة استخداما فهو بدون شكّ من غرس الخوف في نفوس من لم يعدُّوها، ودفعوا الثمن غاليا بأسباب عدم تملُّكها؛ لذا فإنَّ الخائف بأسباب ضعفه عندما يمتلك مُعدّات القوّة ويستعد بها ويتأهب، يتحرّر من الخوف، ويصبح مرهبا لمن كان مخيفا له، وإذا ما تحقّق ذلك، تصبح نفسه مطمأنّة آمنة حيث لا مكان للخوف فيها بعد إعداد العُدّة وامتلاك القوّة الماديّة والمعنويّة، والتمرّن على إدارتها متى ما وجب ذلك دون مظالم.

إذن: بإعداد العدّة المتكافئة مع الذي كان متفرِّدا بامتلاكها تتعادل كفتا الميزان، ويُلغى من القاموس الحربي الخوف الذي فيه غالب ومغلوب على أمره، ليحلَّ محلّه الإرهاب الذي لا عدوان فيه ولا مظالم، بل هو مجرّد إعداد عدّة في مقابل عُدّة كانت لوحدها السائدة في الميدان.

وعليه: يصبح المخيف لا يُخيف، ويصبح الخائفُ غير خائفٍ، ممّا يجعل كلًّا منهما قادرًا على تقديم التنازلات تجاه الآخر بلا خوف، ذلك بما للعدّة من قوّة مُرهبة تؤدّي إلى نيل الاعتراف والاحترام والتقدير والاعتبار.

وعليه: إعداد العدّة عمل إصلاحي كما تُصلح الأرض بعد إعدادها للزراعة، وكما تُهيأ الأشياء إلى أشياء أعظم حتى تصبح صالحة لِما يجب

أن تكون عليه؛ ولذا في الإعداد تجهيز مادّي بما يجب وفقا للإمكانات المتاحة والتي يجب أن تتاح وفقا لدائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

أمّا قوله تعالى: (تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) أي: بعد أن تعدوا العُدّة القتاليّة وتستعدوا بها وتتأهّبوا ستلفتون انتباه أعدائكم لأنفسهم بأنَّ الأمر تجاهكم لم يعدّ كما كانوا يعتقدون، بل إنَّه تغيّر إلى ما هو أخطر وأفضل، (تغيّر من حالة الخوف منهم إلى حالة استمداد الثّقة بالأنفس)؛ فقوله: (تُرْهِبُونَ) تفاجئون أعداءكم بالقوّة التي أعديتموها للمواجهة إذا ما كُتبت عليكم، وهذه العُدّة أعدائكم لم يكونوا قد أعدّوا لها حِساب من قبل؛ ولذا فالإرهاب بالنسبة إلى من كان خائفا أصبح مبعث ثقة وطمأنة في النفس، وبالنسبة إلى من كان مخيفا لغيره، أصبح الإرهاب ناقوس خطرٍ يدقُّ في آذانه؛ لينتبه إلى أنَّ الأمر لم يعدّ كما كان يتوقّع.

وقد يتساءل سائل:

. من هو عدو الله؟ من خلال ما جاء في قوله تعالى: (تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ).

أقول:

بالمطلق أعداء الله هم المفسدون في الأرض، وسافكي الدماء فيها بغير حقّ.

وفي مقابل ذلك فإنّ أحباء الله هم المصلحون فيها وغير سافكي الدماء بغير حقّ.

وعليه: يترتّب على إعداد العدّة أمرين:

الأمر الأوّل: تخلّص الخائف من الخوف.

الأمر الثاني: إحساس المخيف بالإرهاب.

ويترتّب على هذين الأمرين أمورٌ منها:

. الاعتراف بالآخر.

. المصالحة مع الآخر.

. التفاوض مع الآخر.

. أخذ الحيطة والحذر من الآخر.

. التفاهم مع الآخر.

. التسامح مع الآخر.

ولذا: فإنَّ إعداد العدّة والاستعداد بها والتأهُّب للإقدام على خوض المعركة بإرادة يجعل الذين كانوا يشكِّلون خطرا على العباد يعيدون حِساباتهم تجاه الآخرين، وبدل أن كانوا يقدمون على أفعال الحرب والاقتتال يقدمون على كلِّ ما من شأنه أن يلغي تلك المبررات التي كانوا بها يبرِّرون اعتداءاتهم ومظالمهم.

وعليه فالفرق كبير بين الخائف والمرتهب من حيث:

. الخائف: يستطيع أن يتدبّر أمره، وقد يقبل بالمخاطرة ودخول القتال وبخاصة إذا عرف أنَّ القبول بالمخاطرة والقتال هو مكمن الحلّ، أي: إنَّ الخائف يستطيع أن يُقرّر وإن كانت الظروف حرجة.

. المرتَهِب: الذي لا يستطيع أن يَقْدِم على أفعال القتال بوجه السرعة حتى وإن رأى ذلك أمرا ممكنا؛ ولذا فالخائف يستطيع أن يَقدِم على تنفيذ الفعل بأسباب الخوف ذاته، أمّا المرتهب فهو الذي لا يستطيع أن

يُجمّع قواه العقلية بنفس واثقة في مواجهة ما يُرهبه؛ ولهذا هو في حاجة للتدبّر قبل أن يتخذ قراره.

إذن: الإرهاب إن تحقّق في الأنفس أدّى إلى التفاوض والحوار والنقاش من أجل التفاهم، وتفّهم الظروف وما يترتّب عليها من مخاطر، والتحكّم في كلِّ ما من شأنه أن يُرهب الجميع (الأنا والآخر)؛ ولذا فالإرهاب يستدعي من الأنا والآخر أن يُفكِّران جيدا قبل أن يتكلّما، وأن يتذكّرا حتى لا يغفل أحدهم عن أهميّة التاريخ في اتخاذ القرار وصناعة المستقبل.

معطيات الإرهاب:

بدون شكّ لا يعد الإرهاب مُعطية إلا بعد إعداد العدّة؛ فبعد إعداد العدّة الحربيّة يصبح معطية يحسب له الخصم ألف حِساب، والإرهاب بطبيعة الحال مصدره الآلة المرهبة، ولم يكن الإنسان؛ فالإنسان يخيف، ولهذا ينبغي أخذ الحذر منه، أمّا الآلة فلا تخيف، أي: الذي يخيف هو الذي يستطيع أن يقرّر، أمّا الذي يُرهب هو الذي في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع يُلحق دمارا وتدميرًا ماديًّا ونفسيا بلا رأفة.

ولذا: يشكلّ مصطلح الإرهاب حضورا واضحا في هذا الزمن، بوصفه النقطة التي يلتفّ حولها الكثير من الإحالات التي لم تجد لها مكانا إلا فيه، فالتوجّه الفكري الذي قاد هذه الإحالات اكتنفته عشوائية مغرضة خلقت له حالة من الانزواء الظني بعد أن حملت معها إدراكات متباينة في الوقوف على العتبة التي يمكن من خلالها الانطلاق نحو الوصول إلى تعريف يكون هو المرجع الذي يحدّد من خلاله المعايير التي يمكن أن تكون هي الملبّية للكثير من التساؤلات المتحقِّقة.

وعليه: إنَّ مصطلح الإرهاب غير مفهومه، المصطلح هو ما يتمّ التعرّف عليه وفقا لِما يسوّق له، وما يسوّق اصطلاحا للإرهاب لا علاقة له في اللغة العربية والدين الإسلامي من قريب ولا من بعيد بالمفهوم الدلالي للإرهاب، وهنا تكمن مشكلة تستوجب التصحيح والتصويب، أو على الأقل التنبيه لها ولفت الانتباه إليها حتى لا يؤخذ أحد بذنب أحدٍ.

في اللغة العربيّة والدين الإسلامي الإرهاب فعل مترتّب على إعداد العدّة المضادة للعدّة والمتماثلة معها في القوّة، والأخذ به واجب طاعة لأمر الله الذي لا يُقر ظلما.

أمّا لدى أهل الغرب؛ فإنَّ الإرهاب هو فعل مخيف للآمنين، القانون يُجرمُ مرتكبيه، وهو ما يرتبط بالفعل المضاد لاستقرار الأمن واحترام حريات الآخرين.

إذن: مدى المشكلة بين اللغة العربيّة والدين الإسلامي، واللغات الغربية جعل الهوة متّسعة دلالة ومعنى؛ ولهذا فالمصطلح الذي يُقرّه أهل الغرب، لا يقبل بإقراره المسلمون، وفي اعتقادنا كلا الطرفين على حقّ، من حيث إنَّ:

1 ـ لغة العرب: لا تُقر الإرهاب وفقا للمصطلح الذي تُقرّه اللغة الغربيّة، ولهذا لم يأخذ العرب بمصطلح الإرهاب كما يراه أهل الغرب، وفي مقابل ذلك لم يأخذ أهل الغرب بمصطلح الإرهاب الذي تُقرّه اللغة العربيّة؛ ولهذا وجب الالتقاء لصوغ المصطلح الحلّ.

2 ـ المسلمون: دينهم حدّد لهم ماذا يعني الإرهاب دلالة ومعنى؛ ولهذا فهم لا يرون الإرهاب والأفعال الإرهابية هي ما يقصده ويُفسّره

أهل الغرب؛ ولذا فهم لن يأخذوا بغير ما يرونه أمرا بالنسبة إليهم مسلمين طائعين لأمر الله الذي أمرهم بإعداد العدّة المرهبة للعدو، وليس المرهبة لغيره، مصداقا لقوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ}[57].

3 . أهل الغرب: هم الذين يجرّمون الأعمال الإرهابية ويلاحقون أصحابها سواء أكانوا من أهل الشرق أم من أهل الغرب ولا فرق في ذلك. ولكن ما يلاحقون بأسبابه من يلاحقون في حقيقة أمره لم يعد ذلك المقصود بمفهوم الإرهاب في اللغة العربية والدين الإسلامي، بل هو تلك الأعمال والأفعال التي تجري بهدف التخريب والتدمير وسفك الدماء بغير حقّ، وهذه الأعمال والأفعال لا يُقرّها الدين الإسلامي، ولا تعرّفها اللغة العربية بالإرهاب، بل تُعرّفها بالأعمال المفسدة في الأرض، وهذه الأعمال حرّمها الدين الإسلامي ونهى عنها، مصداقا لقوله تعالى: {مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}[58]، وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ}[59].

ولأجل هذه الاختلافات وغيرها كثير لم لا يكون الجلوس على طاولة مستديرة يديرها الحقّ بين المسلمين وأهل الغرب من أجل كلمة سواء، مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا

---

[57] – الأنفال 60.

[58] المائدة 32.

[59] البقرة 30.

وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}[60].

وعليه: فالإرهاب الذي يكون ضمن دائرة التوافقات الإسلامية يستند على أسس تمنحه سمة الحضور الفعلية التي يكون بها تحقّق الدفاع والنصرة، إذ يقول تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)، هذه الآية الكريمة تطرح الاحتراس الذي يجب أن تكون عليه الأمّة الإسلامية؛ ولذا فالإرهاب لا بدّ من تحقُّقه كي يخلق حاجزا منيعا لكلّ من تسوّل له نفسه المساس بالأمّة التي رسالتها تحقيق السلام، عليه يكون التشكل الذي حملته هذه الآية الكريمة مدعاة للوقوف عنده كي نتبيّن من خلاله أهم معطيات الإرهاب، وهي:

القوّة:

القوّة طاقة تمتدُّ مَقدِرةً من مكامنها إلى ما يُحقّق الفعل ظهورا لحسم قضيّة أو إيجاد حلٍّ. وهي في مقابل مفهوم الضعف الذي أصحابه في حاجة لمن يُقدّمُ لهم المساعدة من أجل النهوض ممّا هم فيه من ضعف؛ ولذلك فالقوّة يمكن أن تستمد استمدادا، والضعف يمكن أن يلمَّ بصاحبه

[60] آل عمران 64 . 68.

إلماما، وفي كلتا الحالتين في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع الأمر قابل للتبدُّل والتغيّر من حالٍ إلى حالٍ.

ولأنَّ شعوب الأرض تعددت؛ فكان فيها الصراع سمة من السمات التي منحها نظرة استشرافية لتحقِّق البقاء الحياتي ضمن الدائرة الإنسانية، فكانت القوّة هي الميزان الذي حدّد ويحدِّد الكثير من الحدود الإنسانية، فضلا عن التصدُّر لكثير من الدرجات الترابطية التي تستفيق مرارا على بروز حالة من القوّة الجديدة يكون لها دورٌ مرحليٌّ يغيّر الكثير من المفاهيم، وبطبيعة الحال إنَّ هذا التحقّق يخلق صراعا جديدا يكسر من خلاله حواجز جديدة، فتنفتق الكثير من الآراء، ممّا يمنحها حضورا فاعلا في دائرتها المكانية، فضلا عن المكانة الزمانية التي تتركها.

إنَّ ظهور الإسلام خلق حالة من الالتفاف المنظّم حينا والمبعثر حينا آخر حوله، أُريد من خلالها تهشميه وردِّه عن الدعوة التي جاء بها؛ ولهذا حتى البينيّة المفترضة كانت خاوية من الإحاطة الشاملة التي تمنحها مكانة في التنظير الديني، فأعداء الإسلام في كلّ تاريخه سلكوا كلّ مسلك في سبيل النيل منه والقضاء عليه، وهنا لا بدَّ أن تكون القوّة حاضرة؛ لتكون اليد الطولى للدفاع عن الإسلام، والقوّة ليست محدّدة وغير مرتبطة بشيء يمنحها شكلًا واحدا أو سمة واحدة، بل هي أمر مطلق ذلك أنَّ الحياة كما هي متغيّرة من جميع جوانبها كذلك تكون القوّة متغيّرة، فالانفجار المعرفي الحاصل خلق حالة من الاكتشافات المتعددة والمتنوِّعة في أنواع القوّة ممّا أكسبت من يمتلكها مكانة عالية، مكانة وقتية سرعان ما يمكن أن تتغيّر أو أن تتبدّد حين تظهر مخترعات جديدة على يد أناس آخرين؛ فبذلك تنتقل القوّة وتتغيّر بحسب من يحقّق تفوقا كبيرا في هذا المجال؛ ولهذا عندما نقف عند التاريخ نجد فيه اختلافا في نسق القوّة المتحقِّقة؛

ذلك أنَّ على مدى التاريخ من بداية الوجود إلى يومنا هذا لم يكن أصحاب القوّة مستمرين بأسباب عدم استخداماتهم للقوّة في محلّها المناسب لها؛ فالذي كانت الشمس لا تغرب عن مملكته أصبح فيما بعد لا يتجاوز أرضه التي وُلد فيها ممّا أكسبه مكانا للتقوقع الزماني والمكاني، وحفّته ريح الخوف بعد أن كان يحكم بمنطق القوّة والرهبة والوعد والوعيد، هذا التباين في القوّة يخلق أنساقا مختلفة يُرى من خلالها تحقُّق المعايير المتباينة التي أفضت إلى هذا الاختلاف، والقوّة التي أمرنا بها الله تعالى قوّة لم تحدّد إعدادا لا بالكيف ولا بالنوع ممّا كان الإطلاق حاضرا، وهذا يدفع بالمسلم إلى البحث عن كلّ أنواع القوّة التي تجعله يرهب أعداءه، وتكون مكانته حاضرة دائما في كلّ تصرُّف يمكن أن يخلَّ به أو حتى أن يقلل شيئا من هيبته .

والإرهاب الذي يدعو إليه الإسلام يمثل حالة من الالتفاف الأسلوبي على كثير من المرتكزات التي قوّتها المادية والمعنوية حاضرة ضمن سباق النيل من الدين الإسلامي، هذه المرتكزات المتعددة لم يكن تصرُّفها كفيلا بخلق حالة من التعايش السلمي بين النّاس جميعا، وإن كانت منتمية إلى أصول دينية تمثّلها أو حتى تدّعي أنَّها منتمية إليها؛ وبهذا يكون الافتراق حاصلا إلا أنَّ ما يحفظ الوجود الإسلامي هو القوّة التي يجب أن يعدها المسلم ويمتلكها المسلم؛ لتكون سوره القوي الذي يسقط عنده كلّ ما شأنه أن يؤثّر بهذا الدين العظيم وإن كان ذلك أبسط ما يمكن أن يكون.

وتتباين القوّة لدى المسلم؛ فالقوّة الذاتية يجب أن تكون حاضرة لديه؛ فنفسه مطمئنة، واثقة من عزيمتها وإصرارها من أجل الدفاع عن الدين، وهنا تكون الصيرورة التي يجب أن تتحقّق؛ فالمسلم يجب أن يتهيّأ نفسيا فيكون حريصا حاضرا في ذهنه عظمة المهمة الملقاة على عاتقه؛

ليكون تصرّفه متشكّلا مع إيمانه وذلك أكثر مدعاة للمضي نحو تحقيق الأهداف المنشودة، وهنا تكون هذه القوّة حاضنة لكلّ العُدّة التي يمكن أن تكون حاضرة في المعركة، فيكون استخدامها بأيدي قويّة متهيئة نفسيًّا، يدفعها إحساسها العالي بما اعتنقت، وبما ينتظرها من مستقبلٍ أفضل.

إن الإرهاب الذي يتحقّق من إعداد العُدّة يخلق حالة من الانكفاء الفكري والمكاني؛ فالفكري يكون من خلال ضمور الأفكار المستشرية التي أراد أصحابها من ورائها أن يخلقوا حالة من الانشطار لهذا الدين العظيم، فيكون تسلّلها مؤجلا بعد أن نشطت في حالة الضعف التي تمرّ بها الأمّة، أمّا الانزواء المكاني فيكون من خلال الابتعاد عن الأمّة في كلّ أماكن تواجدها والمكوث في أرض تكسبها التفافا على نفسها وإن كان وقتيا في بعض الأحيان إلا أنَّه يدلّل على فاعلية القوّة التي يجب أن تكون عليها الأمّة، وهنا نرى أن القوّة في الإرهاب؛ فهو يمنح من يمتلك عُدّته قوّة في التصرّف في حدود واضحة المعالم تجاه منع الاعتداء، ولكنّ إن تحقّق الاعتداء ظلما فلا حلّ للردع إلا باعتداء مماثل حتى يستقرّ الأمن والسّلام مع وافر التقدير والاعتبار؛ ولهذا لا يعد مروره من باب الاستيلاء في المنظور الإسلامي، ولكن من باب إزاحة الخطر الذي أراد أن يعصف بالأمّة الإسلامية ويُفكّكها ويفتح أبواب الفتن التي من شأنها أن تغيّر ما تستطيع أن تغيّره من مفاهيم أو تشريعات.

بدون شكّ الحقُّ في هذا العالم لا تحميه إلا القوّة، فالعالم وكأنّه غابَةٌ كبيرة، إن لم تعد فيه العُدّة لإرهاب الذين يمتلكون القوّة ستكون المعادلة دائما بين خائفٍ ومخيف؛ ولهذا إعداد العُدّة هو الذي يرهب المفسدين في الأرض ويُحفّز على العمل ويؤدِّي إلى تحقيق الأمن والسّلام، قال تعالى:

{وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا}[61]؛ فالقوّة التي تُستمد من إعداد العُدّة هي التي تقوّي الإرادة التي تُحفّز المؤمن على التأهّب بما تمّ إعداده من عدّة، وهي المرهبة لمن لم يكن يتوقّع أنَّ الخائفين سيأتي يومٌ يصبحون فيه قادرين على المواجهة.

ولذا؛ فالإرهاب هو الذي يمثّل الخط الأحمر لكلِّ من يفكّر أن يعتدي على الآخرين ظلما، والقوّة (المادية والمعنوية) وحدها هي اللغة الحاسمة للجدل والصراع؛ ولذلك فرض الإسلام إعداد العدّة (القوّة) الرادعة واستنفاد الاستطاعة في ذلك؛ من أجل إرهاب الأعداء، وإيقافهم عند حدّهم، ومنْع ظلمهم، وردْع طغيانهم، ومن أجل إقامة العدل في الأرض، وجعَل القبول بالسلام لا يكون إلا بعد جنوح الأعداء إليه وانصياعهم إليه تحت تأثير القوّة.

ورغم أهميّة القوّة المادية وضرورة العناية بها، فإنَّ الأمَّة الإسلامية تمتلك من مقومات القوّة والنهضة ما هو أهم من القوَّة المادّية البحتة، تمتلك القوّة الإيمانية، التي كانت السبب الأوّل في نهضتها وعزّها، وهذا كفيل اليوم بخلق حالة استدعائية تحث الخطى من أجل الوصول إلى حالة جديدة مغايرة للواقع الذي تعيشه، فلا بدّ من البحث عن أسس القوّة أيّا كانت ومحاولة الوصول إليها وتملُّكها، وهنا تكمن قوّة الإرهاب التي يجب أن تتحقّق بإعداد العُدّة الكفيلة بحسم الصراع مهما تجدّد وتكرّر، لأنَّ العالم اليوم لا يُقدِّر أيَّ شيء إلا لغة إعداد العُدّة، فهي سيدة المواقف

[61] – النساء 75.

والتي يُتَخَذ من خلالها كلّ القرارات التي من شأنها أن تبني ركنًا للأمّة أو أنْ تهدّ أركانُ الأمّة بكاملها.

العُدّة:

العُدّة هي مجموع ما يعد لِما يناسبه من أفعال، سواء في حالة الحرب أم في حالة السلم، ولكلٍّ عُدّته، عدّة السلم تتعدد وتتنوع؛ فما يلزم البنَّاء ليس هو ما يلزم الطبيب، وما يلزم الحلّاق ليس هو ما يلزم المزارع، وهكذا. أمّا في حالة الحرب فالعُدّة تتنوّع وتتعدد وتُطوّر عبر الزمن، فلكلِّ زمن عدّته التي تناسبه لحسم الصراع أو الحرب والقتال؛ ولهذا تعددت الأسلحة العسكرية وتنوّعت فكان حضورها في المعارك يمنح صاحبها سمة نيل الاعتبار، وهذا يشير إلى أنّ من يمتلكها يمتلك مقاليد أمره في حسم المعركة إذا ما أُشعلت نيرانها من قِبل المفسدين في الأرض وسافكي الدماء فيها بغير حقّ، فيكون لمعدّ العُدّة ومالك القوّة الحاسمة للصدام والصراع الحصن الحصين واليد الطولى في كلّ الوقائع التي تحصل، ومن الأجدر بالمسلم أن يمتلكها كي يرهب أعداءه وتمنحه ثقة بالنفس، فتفتح له آفاقا جديدة في البحث عن زوايا جديدة يكون من خلالها الوصول إلى أعلى الدرجات في إثبات إرهاب الأعداء؛ ذلك أنَّ الحياة اليوم لا تكتفي بما هو موجود، بل أيَّ تفاعلها المعرفي مستمر يبحث له دائما عن مستجدات جديدة يحقّق من خلالها مآربه التي يرتضيها، والإرهاب المراد لا يتحقّق من تعلُّق مستمر بما هو موجود أو بما يكون ضمن دائرة الامتلاك الحاصلة، بل لا بدَّ من البحث عن أرضية جديدة يكون فيها أسباب الرهبة للأعداء؛ فطلب العلم بفروعه المختلفة يخلق حالة من البحث عن القوّة التي يجب أن تكون؛ ولذا فالعالم اليوم يجري به تسابق في كلّ لحظة

من أجل الوصول إلى أعلى درجات التطوّر في جميع المجالات كي يخلق حالة من التفوّق تكسبه منعة وحصنا في كلّ المجالات.

إنَّ التقابل الحاصل في الحياة أو بعبارة أخرى الضدية المتحقِّقة تملي على أصحابها حضورا متنوعا ليس من باب الاكتفاء، بل من باب الالتفاف على الطرف الآخر ومحاولة معرفته جيدا في كلّ الجوانب التي تلتقي فيها نقاط قوَّته، هذه المحاولة يكون فيها إعادة إنتاج يكون من ورائه خلق كينونة ترهيبية فعّالة تفوق المتوقّع وغير المتوقّع؛ فيكون للأمّة عُدّة جديدة بيّنة من خلال الوقوف على عُدّة الأعداء، وهذا الأمر يخلق إرهابا للأعداء لم يكن بالحسبان، فتكون الآصرة الترابطية لأبناء الأمّة قويّة بقوّة العُدّة التي يمتلكونها؛ ولهذا يكون الخرق ضئيلا إن تحقّق، ذلك أنَّ قواعد الأعداء حين يتمّ الإغارة لردّ العدوان بعُدّة مغايرة لما يتوقّعونها تحصل القوّة التي يجب أن تكون، وهنا يكون التفوّق من السّلوك الصحيح في اتباع المناهج الضدية، فضلا عن كلّ ما يتّفق مع التوجيه الإرهابي المنبعث عن عقيدة راسخة لا تريد إلا إعلاء كلّمة الله تعالى والإصلاح في الأرض.

عليه: تكون العدّة ركنا مهما في ترهيب الأعداء ومحاولة ثنيهم عن التفكير بما يسيء للأمّة أو أن يؤذيها؛ فالخلاص يكون من خلال الترهيب الذي يدور في أروقة الأعداء فيكسبها ضمورا حقيقيا يكون من ورائه التقوقع المراد؛ ذلك أنَّ التحديث المستمر يمنح كلّ الأطراف تبعات متعددة ومتنوّعة، فيكون التوقُّف أو الانزواء أرضية للتقهقر والخروج من دائرة الترهيب التي يريدها الدين الإسلامي؛ ذلك أنَّ الإرهاب لا يمكن تحقُّقه دون فاعليّة مؤثّرة، فالعُدّة عند تحقُّقها يكون الإرهاب سيد الموقف حتى في خلق شروط لم تكن حاصلة قبل حصول الإرهاب، ممّا يجعل

نعمته متحقِّقة وإن لم تتحقّق فاعلية العُدّة فإنَّ فاعلية العُدّة تحقّقت وإن لم تستخدم، وهنا نرى أنَّ الإرهاب أدّى فعله الحقيقي الذي يكون دون الوصول إلى حالة الإفساد في الأرض التي تتحقّق في حالة استعماله، فيكون الكسب كبيرا للأنا والآخر، فللأنا تحصل الحماية والمنعة والثبات، وللآخر الموافقة مع تفّهُم وعن تفاهم، فالذي كان رافضا لِما يُطرح عليه من أجل تحقيق الأمن للجميع أصبح اليوم يوافق على المطالب مع فائق الاعتبار للآخرين. وهنا تكون فاعلية الإرهاب المنشودة، فإيجابية الإرهاب تكون متسعا للبحث عن تصورات جديدة تتكئ على الإرهاب وتتحقّق به، فالفاعلية المنشودة للإرهاب يجب أن تكون حاضرة في كلّ الخطوات التي يمكن أن تُتّخذ، وهنا تكون العُدّة قد أدّت دورها في الإرهاب ضمن صيرورة مستمرة تتقلب بين جوانب عِدَّة تبحث لها عن قوّة بيّنية خارقة للمتحقّق.

والإرهاب لا يتحقّق إلا بإعداد المستطاع من العُدّة الممكنة من بلوغ القوَّة، وقد تعددت وسائل القوَّة، واختلفت صورتها من جيل إلى جيل؛ ولهذا على الأمّة أن تعد العُدّة ما استطاعت لذلك من سبيل في كلّ عصرٍ من العصور التي تتطوّر عُدّتها وتتنوّع وتتعدد.

ومن فوائد إعداد العُدّة أنّها المنبّه للآخر الذي كان غافلا عمّا بلغه الأنا من إعداد عدّة وما تأهّبه من تأهُّب وما رابط عليه من وسيلة (خيلا أم آلات وفقا لظروف العصر والتقدُّم العلمي والتقني)، فاستعداد أبناء الأمّة وتحصّنهم بالآلات والوسائل القتالية المناسبة لعصرهم، يلقي في قلوب الأعداء الذين لا نعلمهم أو لا نعلم بعداوتهم الرُّعب الذي يجعلهم يلتفتون إلى كلِّ ما من شأنه أن يقيهم دمار ما أُعدّ من عدّة؛ فلا يكون

هناك تكرار للعدوان في المستقبل حيث لكلٍّ حِسابه (إن عدتم عدنا والبادي أظلم).

وفي قوله تعالى: (تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ)، تكون بذلك دائرة الرهبة مكتملة على الأعداء، فيتحقّق بذلك الانتصار بسمة عريضة يكتنفها التصريح بقوّة العُدّة التي من شأنها أن تحقِّق ما لا يمكن تحقُّقه في أوقات أخرى.

الإنسان:

الإنسان في خلقه قوّة قادرة على صناعة العدّة وإيجاد وإعدادها التي تُظهر قوّته التي شاءها الله تعالى أن تكون في مرضاته، لا في عصيانه والكفر به، أو الشرك؛ ولهذا خلقه تعالى في أحسن تقويم قال حلّ ثناؤه: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِين إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}[62]، ولأنّ حُسن التقويم يستوجب تدبّر وحُسن إدارة وجودة علاقة؛ لذا فمن يخالف ذلك يعد خارجا عن المشيئة الخَلقيّة التي عليها قد خُلق، ومن حُسن الخُلق أن يعد المؤمن العُدّة لمن أعد له عُدة لمقاتلته أو احتلال أرضه وهتك عِرضه والاستيلاء على ثروات وطنه.

ولهذا يمثّل الإنسان العمود الفقري للإرهاب بوصفه المرتكز لهذه العملية المهمة التي بتحقُّقها تتحقق أهدافا بالغة الأهمية على المستوى الفردي والجماعي والمجتمعي، فالإنسان المؤمن هو الذي يعد العدّة بدون أهداف ظالمة؛ فحين يكون إعداد الإنسان إعدادا صحيحا مواكبا للتطوّر الحاصل في جميع الأصعدة، يكون الفعل الإرهابي متحقّقا وفق نظرة

[62] التين 4 . 6.

معرفية تدرك ما يجري وتستوعب ما يجب دون إفراط في استخدام القوّة إذا ما كُتبت الحرب أو القتال على أبناء الوطن.

وعليه: يكون الإنسان هو الطرف المهم في إيجاد تفرُّعات متنوِّعة لرفد الإرهاب بكلّ ما يمنحه التحقّق؛ ذلك أنَّ التنوّع المعرفي غير مرتبط بجهة دون أخرى، وهذا يجعل كلّ الأطراف تحاول أن تبعثر الذي أمامها فتوجد بذلك فوضى مقصودة تريد من خلالها إيجاد تعالقات جديدة تكتب ما تريده بفاعلية جديدة، وهذا حال الإرهاب الذي يحاول جاهدا أن يجد مدارات جديدة تكون له دون غيره؛ فيمسك العصا من أي طرف ليحقّق له ما يريد، وهذا بطبيعة الحال ليس على سبيل التحقيق الفعلي المدمِّر، بل يكون إرهابا متحقّقا من شأنه أن يؤتي أُكله دون اللجوء إلى التحقيق الأوّل، وهنا يتشكّل أسلوب الافتراق المنضوي على قراءات مسبقة تكون المعين الدائم للوصل إلى تحقيق أهداف متنوّعة، هذا التنوع سيحدِّد الكيفيّة التي يجب أن تكون؛ فالإنسان في هذا الموقف هو المحفّز لأيِّ أسلوب يمكن أن يُتخذ ليس بوصفه طرفا رئيسيا في عملية الإرهاب فحسب، بل بكونه طرفا يحقّق الإرهاب ويتحقّق عليه، ممّا يخلق حالة مزدوجة يمكن من خلالها الوصول إلى كلِّ ما من شأنه أن يطرح الأساليب المتنوِّعة لتحقيق الإرهاب المنشود.

إنَّ الإنسان بطبعه يبحث عن سبل كثيرة يريد من خلالها الوصول إلى مبتغاه، هذا البحث يكتنفه تبعات في حالة الحصول على المبتغى، فالإرهاب الحاصل من هذا المبتغى يكون سلاحا واقعا ضمن دائرة المتوقّع وغير المتوقّع، فالمتوقّع يكون حافزه ليس بالكبير كونه حاصلا وحدوده يمكن ردِّها ووضع علامات لها، وتكون مدعاة للتقييم وحتى للتقويم، ومن ثمَّ تكون قابلة للرصد والتحليل والتمثّل، أمّا غير المتوقّع تكون حدوده

غير واضحة المعالم أو ممحيّة نهائيا، فيكون الاستغراق الفكري حاضرا في إيجاد افتراضات مستمرّة تحاول أن تجيب عن كلّ ما يُطرح، وهذا بدوره يخلق حالة من الارتدادات المعرفيّة التي يكون فيها التسابق حاصلا للوصول إلى كنف جديد يكون ملبّيا للمراحل المرادة، فالانزواءت غير مطلوبة، والعبثية غير مطلوبة، والتوقّف غير مطلوب، والتسليم بما هو موجود سلبيا غير مطلوب؛ ذلك أنَّ الإرهاب يمرُّ دائما بحالة من الخرق ممّا يحمله إلى البحث عن كلّ ما يمكن أن يكون فيه المنعة والنصرة، فالإرهاب لا يكون حالة مستقرّة، إنّما هو حالة متجدِّدة، تتجدّد بالإنسان الذي تمَّ تهيئته تهيئة صحيحة يستطيع أن يقود الإرهاب نحو تحقيق أهدافه المرسومة، فلا يكون هناك تراجع، بل يكون هناك استمرار يقوده ذلك الإنسان الذي اكتسب فاعلية البحث في إيقاع الترهيب بأعدائه الذين يتربّصون به الدوائر.

ولأنّ الإرهاب فعل لا يتحقّق إلا بعد إعداد عُدّة فاعلة في الميدان؛ فإنَّ توعيّة النّاس بأهميّة الإرهاب في نيل الاعتبار والتقدير يعد ضرورة حتى يتبيّن أبناء الوطن أهميّة الإرهاب في صون الكرامة وحفظ البلاد من العدوان وحفظها من بث المفاسد الظالمة بين النّاس، ولهذا الإرهاب لا اعتداء فيه، فالاعتداء دائما في مواجهة اعتدا؛ لذا ينبغي لنا ألَّا نغفل المقرّرات الدراسية عن تضمين دلائل الإرهاب موضوعيا حتى تشبّ الأجيال على المعرفة الواعية التي تُسهم في صناعة المستقبل الأفضل، وكذلك لا ينبغي لوسائل الإعلام أن تتجاهل عرض العُدّة التي تَمكَّن الشعب من صناعتها لردع من تسوّل له نفسه إن سوّلت له ما سوّلت، ولكن إن غفلت الأمّة عن أهميّة إعداد العدّة المرهبة لمن يجب أن يتمّ إرهابهم ستكون المخاوف مبثوثة في كلِّ فرد وفي كلِّ أسرة حتى تعمّ الوطن

بكامله، ولأنّ الله تعالى شاء للأمّة أن تكون على القوّة أمرها أن تعد العُدّة التي تجعلها على القوّة والمنعة وتجعل السّلام سائدا بين النّاس آمنين، ومن هنا؛ فالإرهاب ليس عملا فرديا متطرفا، بل عملا وطنيًّا فيه الكرامة قيمة رائدة ولا مظالم.

هذه الثقافة تمثّل رأس الحربة والجسر الذي يعبر عليه المسلمون لفهم واقعهم على الوجه الصحيح، وفهم أعدائهم وخططهم وطرقهم، كما أنَّ توحيد قوى الأمّة كافة، وإزالة ما بينها من فرقة واختلاف، أو شحناء، وإشاعة التراحم بين النّاس، وحثِّهم على التعاون والتكامل، وشحذ الهمم نحو البذل والعطاء، والجهاد في سبيل الله الذي لا مظالم من ورائه، بل إحقاقا للحقّ؛ فمن خلال العمل على تحقيق هذه الأهداف يقوم التثقيف بخلق إنسان يستطيع أن يكون جزءا لا يتجزأ من الترهيب الذي هو شفاء لداء التخويف الذي ألمَّ بالمستضعفين في الأرض؛ ولذلك فالإرهاب ليس فعلا انتقاميًّا، بل فعل ردّ اعتبار وفيه الاحترام للآخر ضرورة؛ ولذا فما يجري في هذا العصر من مطاردة للأبرياء ذبحا وتقتيلا وتفخيخا ورعبا كلّها مظالم وجرائم ما أنزل الله بها من سلطان، ولا علاقة لها بمفهوم الإرهاب في اللغة والثقافة العربية والإسلامية.

وعليه ما الحكمة من الرّهبة؟

ليقف كلّ عند حدِّه، ولا يمتدَّ على حِساب حدود الآخرين.

إذن: الذين يدعونه رغبا ورهبا هم الذين يعرفون الحقَّ؛ فلا يعتدون ولا يظلمون أحدا، أي: إنَّهم الطائعون للأخذ بما يجب والمنتهون عمَّا نهى الله عنه.

ولأنَّ الله يمتلك أمر الرّهبة، فهم ممّا خلق مرهبا مرتهبون؛ ولهذا هم واقفون عند حدود الطاعة يدعونه رغبة في كفِّ الشر عنهم والمظالم ولا يحاسبهم بما فعل السفهاء منهم، قال تعالى: {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ}[63].

أمَّا الفاعل النسبي للإرهاب؛ فهو غير عاقل؛ ولذا كلّ ما يأتي من غير العاقل فهو مُرهب، فالحية على سبيل المثال مرهبة ومن بين ممّا تعطيه تعطي سما، والنّار كذلك مرهبة، ومن بين ما تعطيه احتراقا، والقنابل المتنوّعة والمتعددة لا يأتي منها إلا تدميرا؛ ولذا فإن الدلائل في دائرة الممكن تثبت أنَّ وراء فعل الإرهاب فاعل غير عاقل سواء أكان فاعلا بذاته كما هو حال الأفعى أم كما هو حال الصواريخ والأسلحة الشاملة وغير الشاملة، أمَّا الخوف فهو فعل متحقّق بأمر عاقل؛ فالسكِّين على سبيل المثال: يُرهب، ولكنَّه لا يخيف؛ فالذي يخيف هو من يستطيع أن يُقرّر استخدام السكِّين في غير أوجهه المشروعة، ولا يُعد السكّين مجرما، ولا مُفسدا ولا ظالما، وإنما يعد أداة جريمة، أمّا المجرم فهو العاقل الذي استخدمه، ومع أنَّ وراء كلّ فعل فاعل إلا أنّه من ورائه عاقل يمكن أن تفاوضه، ويمكن أن تحاوره، ويمكن أن تجادله حُجَّة بحُجَّة، ويمكن أن تخيفه إذا ما امتلكت مقاليد القوّة بما هو أعظم، ويمكن أن ترهبه بها عندما تكون القوّة على كفّتي التعادل المحقِّق للتوازن وإعادة الاتزان.

نقول: هذه المرهبات التي ترهب من هو عاقل وبما أنَّه عاقل ألا يكون من الأفضل للعاقل أن يتدبَّر أمره في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع لما

[63] الأعراف 155.

يُمكِّنه من حاضرٍ آمنٍ ومستقبلٍ أكثر أمنا، فإذا فكَّر في هذا الأمر ليس له بدٌّ إلا أن يعد العدّة التي تقيه شرور المخيفات ومخاطر المرهبات.

إذن: القاعدة: (الشرور مصدرها مخيف) و (المخاطر مصدرها مرهب).

وبناءً على هذه القاعدة أنَّه لا علاج للخوف إلّا بإعداد العدّة المماثلة لما يرهب، ولا هروب من المخاطر إلّا بإعداد ما يرهبها؛ ولهذا فالخوف شرٌّ قد يكون لا بدَّ منه في حالة وجود خائف ومخيف، ولا نهاية للخوف إلّا بامتلاك القوّة وإعداد العدّة المرهبة لمن يعتقد أنَّه سيكون معرَّضا إلى قوّة مماثلة أو أنّها أكثر تفوقا.

وعليه: فالنتيجة المنطقية من امتلاك وسائل الإرهاب أنَّها المحرِّرة من الخوف والمغالبة بغير حقٍّ؛ ولذا يتطلَّب الاتجاه العلاجي بالإرهاب استقراء الواقع ومعطياته، وما فيه من معطيات ودلائل بها يتمُّ استفزاز الآخرين وإرهابهم، وإن أردنا القضاء على الخوف؛ فعلينا بمعالجة الأسباب والعلل سواء أكانت كامنة في دائرة غير المتوقّع أم ظاهرة في دائرة المتوقّع؛ ولأنَّ هذا الأمر لا يُعد سهلا فإنَّ البحث والتقصي العلمي والموضوعي ضرورة لتحديد الأسباب ومكامنها وعللها؛ حتى يتمّ استهدافها بالعلاج دون ردّة فعل، ذلك أنَّ ردّة الفعل تجعل الأمور تسير باتجاه جديد بعيدا عن كلّ آليات المعالجة الصحيحة التي يمكن استخدامها، فالبناء العام لكلّ ما يجعل الأمور تسير وفق مقتضيات البحث عن حلٍّ لا يكون وفق تصرُّف آني بعيدا عن القراءة الواعية التي يكمن من ورائها تحقُّق المراد.

إنَّ الطرح العلمي يحيل الكثير من العوائق الصعبة إلى ركام تسير عليه الحياة من جديد، وتُعد هذه العوائق الصعبة من الماضي؛ ذلك أنَّ الاستقراء الصحيح يمنح الأساليب المتعددة والمتنوِّعة الباحثة عن حلٍّ نظرة

استشرافية تقدّر الأمور وتمنحها أبعادا جديدة يكون من ورائها إيجاد البدائل، بل إيجاد الحلّ الكلّي الذي يكون من خلاله سلب الكثير من الأحكام التي كانت تعد وكأنّها شريعة لا يمكن خرقها أو حتى تعديلها، فانقلاب الموازين بهذه الطرق العلمية الصحيحة يكون انقلابا غير مبني على ردّة فعل، فردّة الفعل لا تمنح صاحبها إلا نشوة مؤقَّتة يكون بعدها الخراب الدائم الذي لم يكن بالحسبان، كما أنَّ الاتكاء على التبعيّة يسلب الإرادة التي تكون هي الموجّهة لكلّ أفعال التغيير الحقيقية؛ فالاستقلال التام يخلق كينونة واضحة حين تتخذ القرارات، أمّا التبعية فتكون حاضنة لكلّ ما من شأنه أن يعيد الأمور نحو الوراء؛ فيحصل الانكفاء المربك الذي يكون من ورائه الاستمرار في نفس الدوائر السابقة التي سرعان ما تظهر مرارا وهي تتكرّر أمام العيون لتؤكِّد وجودها غير الطبيعي الذي حصل نتيجة البقاء على التبعية العمياء التي لم تجلب إلا الهوان والذل.

عليه: يكون البحث عن أسس علمية صحيحة باعثا لإيجاد حالة من الانفراج لكلّ المواقف التي يكون من ورائها العلاج المطلوب؛ فالتعامل المبني على هذه الأسس يغيّر التوجه العام المرتبط بتداعيات يظن أنَّها لا بدَّ من تحقُّقها، فإعداد العدّة والقوّة بأساليب صحيحة يخلق حالة من الاستقطاب المفاهيمي الجديد، والذي يكون باعثا لخلق تنظيرات تؤطّر المتحقّق بأطر جديدة؛ فيكون بذلك الاتساع المفاهيمي المنشود الذي تحصل من ورائه استمرارية جديدة متواصلة لكلّ ما كان يسير في اتجاهه، وهنا يكون التواصل تواصلا لخلق حدود جديدة بين الخائف والمخيف، حدود تتَّسم بفاعلية متباينة غير ثابتة كما يُعتقد أو بما يجب أن يكون.

ولأنَّ المخاطر تتعدّد في العالم نتيجة امتلاك القوّة من قبل البعض من جهة وفقدانها من قِبل البعض من جهة أخرى؛ لذا فإنْ لم ينتبه العالم

بأسره قويَّه وضعيفه إلى المخاطر المترتّبة على امتلاك القوّة وسوء التصرُّف بها، وما يترتّب عليها من أضرار فلا يمكن أن يلتقي الأنا والآخر على طاولة تفاوض مستديرة؛ ولهذا لن تنتهي التأزُّمات ولن تزول المخاطر، بل تزداد المخاوف ازديادا، وفي هذا الاتجاه ستظل المخاوف في حالة ازدياد، وسيظل الضعيف ضعيفا وقد يزداد ضعفا، في مقابل بقاء القوي قويا وهو يزداد قوّة.

وعليه: لا يكون الحلّ إلا بامتلاك القوّة المتماثلة مع القوة، فإن امتلك الضعفاء مقاليد القوّة الخاصّة بهم حتى تماثلوا في دائرة الممكن مع الآخرين الذي يمتلكونها إعدادا وعدّة واستعدادا واستخداما، حينها تصبح المعادلة السائدة بين الأنا والآخر هي معادلة الإرهاب الشافي من الخوف (الإرهاب الذي به تتعادل كفتي الميزان على شعرة العدل فيه).

إذن: يتّسم العلاج بالمتغيّر، هذه السمة لا تكون وفق الجانب السلبي بطبيعة الحال، بل تكون ضمن الجانب الإيجابي، ذلك أنَّ تغيُّره يحيل إلى التفاعل الجاد والحقيقي مع المخاوف الحاصلة وغير الحاصلة؛ فالحاصلة يُرى فيها القوَّة الواضحة التي تخيف والتي يكون وجودها يشغل حيزا في الاستعراض الفعلي الذي يكون في المسرح الواقعي المعلن، وهذه الحالة تكون للرؤيا رحلة استكشافية معلنة، تخوض غمار الحياة بفاعلية واضحة نتيجة تحقُّقها في المواقف الفعلية أو نتيجة تحقُّقها في ساحات التجربة المرئية، فيكون الانطباع منفتحا على أكثر من جهة فيكتنفه ارتباط فعلي يزيل الكثير من التساؤلات التي يكون بعضها موضعا للشّك مما يؤدِّي إلى خلق رؤيا واضحة تبنى عليها آليات العلاج التي يجب أن تكون، فمادامت قاعدة البيانات صحيحة وموثقة فالعلاج لا بدّ أن يستند عليها أوّلا، وأن يكون محققا للهدف المرجو ثانيا .

أمَّا المخاوف غير الحاصلة فهي حاصلة حين يكون التفكير فيها وكأنَّها متحققة؛ فيكون الإبهام والغموض الذي يكتنف الكثير من الأنباء المتضاربة موضعا لبلورة رؤى كثيرة تتناوشها القراءة المتعددة المنتمية إلى مخاوف عالية الدرجة، فيحصل بذلك التطابق بين هذين الاتجاهين فيولد تعالق ضمني ممتد لامتداد حالة الخوف الأولى.

إنَّ العلاج يكون دائما وفق تجليات حاصلة فتنكشف بذلك الدوافع والأسس التي يجب أن تكون، فلا يكون للافتعال أيِّ مكان؛ لأنَّ الظهور حاصل، وبهذا الظهور تتشكّل الاستراتيجية التي ستُتَّبع، والتي ستكون الحاضنة لاستيعاب الدوافع والأسس التي سيبنى عليها ما يكون؛ وبهذا يكون العلاج قد قطع شوطا مهما في إرساء قواعده التي تمنحه تعبيرا حقيقيا للوصول إلى حالة التمكين الكلّي في إيجاد حلول ناجعة وسريعة للبناء وللتصدّي ولاستشراف ما سيكون في المستقبل على سبيل المتوقّع وغير المتوقّع؛ وبذلك يكون هذا الاتجاه محقّقا للعتبة الثانية بعد الاتجاه الوقائي بوصفه حالة متقدِّمة متحقّقة فيها أسس جديدة لدرء ما يمكن أن يحدث.

التطرُّف وكمون الحلّ

العقل مركز الإدارة العامّة:

العقل مركز الإدارة العامّة يدير الحواس كما يدير المدركات، ويدير المجرّد والمحسوس والمشاهد والملاحظ، ويتدبَّر ويتذكَّر ويفكّر، ومع أنّ العقل مركز الإدارة فإنَّه لا يتولى تنفيذ كلّ شيء، بل يترك التنفيذ لكلٍّ وفقا اختصاصه مما يجعل الكلّ مراكز لا تدار إلّا بهم؛ ولهذا بالنسبة إلى مشي القدمين، فإنْ لم يُعطِ العقل حرية الحركة للقدمين فإنّ الخطوات لن تتبادل بمرونة، وإن حاول أحدُ مبادلتها فسيكون صاحبهما من المتعثرين؛ ولذا لن تخطو القدمان بصاحبهما خطوات ثابتة إلا بقرار واضح من العقل لأداء واجبات محددة.

إذن: الخطى عندما تطوي المسافات بقرارٍ من الإدارة العامّة (العقل) تصبح علاقة التطابق تامّة بين خطى القدمين، ورؤية العقل.

أمّا إذا أُجبرت القدمان من الغير على قطع المسافات، فلا شك أنّها ستتعثَّر عندما يحاول الآخر أن يجرُّها أو يجبرها بما لا يصدره لها العقل من قرارات واضحة ومحددة؛ لذا عندما يكون قرار الإدارة العليا وفقا لِما يجب؛ تصبح الخطوات متهيّئة ومستعدة ومتأهِّبة لقطع المسافات دون تردد. ولكنّ المدير العام لا يدير شيئا باستقلال عن غيره إلّا في حدود الوظيفة الخاصة به إذ خصّص العين للنظر واللسان للذوق والأنف للشم والأذن للسمع، وجعل كل منها في حالة تهيّؤ لإرشاد غيره إلى ما يجب عند كلّ أمر يصدر له، كما يرشد البصر القدمين إلى السير في الاتجاه الذي يشاء العقل بلوغه، وعندما لا يكون الخوف مرافقا لقطع المسافات تزداد القدمان ثباتا تجاه الهدف الذي يستوجب الإنجاز ومعها العينين تحمْل مسؤولياتها تجاه ما يجب أن تقدِّمه للقدمين من إرشاد، مما يجعل

الإنسان متمكنا من الوقوف على أدق الأشياء بإرادة وظهورها أمام المركز برؤية واضحة، ولهذا عندما تُحبر العينان جبرا فلا يكون للرؤية وضوح، ولا تُكشف الحقيقة أمام الإدارة العليا ما يجعل المدير العام غير قادرٍ على اتخاذ قرارات مُرضية وواضحة للأنا والآخر والوسطي وإن حاول واجتهد؛ فيترتّب على ذلك فوضى إن لم يُحسم الأمر فيها قد يشتد الصراع ليكون فيه كلّ طرفٍ متطرّفٍ.

ومع أنّ العقل هو المسؤول الأوّل الذي يدير الإدارة العليا فإنَّ الإدارة العليا لا تدار به وحده فهناك القلب، وهناك العاطفة، ولكلٍّ منهما غاياته التي تمتدّ بين قوّة وضعف، فإن تطابقت رؤى المدير العام (المسؤول الأوّل) مع المساعد له (القلب) كانت القرارات الصادرة ضميرية، تُطمئن الأنا والآخر والوسطي، وإن غَلُبت رؤى العاطفة المساعد الثاني للمدير العام مالت القرارات إلى ما يُشبع الغرائز على حساب ما يُشبع النفس التي لا تطمئن إلا بقرارات الضمير العادلة التي لا تغفل عمَّا يرغبه القلب وما ترغبه العاطفة ولكلٍّ حاجاته التي يجب أن تُشبع باعتدال دون أن تكون على حِساب طرفٍ من الأطراف؛ ولذا عندما تكون قرارات العقل مع الضمير حاسمة فإنّ العينين لا تقومان بتزوير الحقائق البصرية وإن رغبت العاطفة.

إذن: تتعدد مراكز الإدارة في الإنسان من المدير العام ومُسَاعِديه إلى الإدارات المركزية الأخرى وفقا للصلاحيات والاختصاصات التي فيها يُدار السمع بمتخصصين كما يُدار البصر بمتخصصين، والشم واللمس والذوق بمتخصصين، وكما تدار الإدارات التي تليها في الأهمية بمتخصصين بالنطق، والمشي، والرمش وهكذا تتعدد وكلّها تقرّر ما تشاء، ولكنّ التنفيذ الموضوعي عندما يتعلق الأمر بالمراكز الأخرى لا يتمّ إلا بعلم الإدارة

العامّة؛ ولهذا كلّما وجب ظهور المركز العام أو وجوده وجب ظهور المراكز الخاصّة، مراكز السمع والشم واللمس والذوق والبصر وغيرها، ومن يحاول أن يجعل الأمر كلّ الأمر في إدارة عامّة يجعل الحواسّ غير قادرة على أداء وظائفها التي خُلقت من أجلها ويدفع بعضها إلى التطرُّف الذي به تشوَّه الحقائق وتزوَّر فلا تُقدَّم للمسؤول الأوّل (هي كما هي) ما يجعله في كثيرٍ من الأحيان يتخذ قرارات غير صائبة وقد يتمسَّك بها ويجبر النّاس عليها، وسواء أكان يدري أم لا يدري يجد نفسه قد دفع بعض الذين تمّ إجبارهم بغير حقّ إلى التطرُّف فكرا وتنفيذا؛ فيترتّب كرههم بغير حقّ ومقاومته بغير حقّ بأسباب المعلومات الخاطئة والمزوَّرة التي قُدِّمت للمسؤول الأوّل وترتّب عليها ما ترتّب من إجراءات غير موضوعية.

إذن: بوجود الإدارة المركز تظهر مراكز متعددة، ولكلّ مركز أهمية تستوجب الاعتراف والتقدير والاعتبار وفقا للتخصص والاختصاص والخصوصية، وهكذا المراكز تتعدد بما يُمكِّن المواطنين من ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات، وإن لم يتمّ الاعتراف بذلك فسيكون التطرُّف من الأساليب المنتشرة بين من يريد نيل الاعتراف ومن لا يريد الاعتراف به.

فالمركز الذي يريد أن يكون على حساب طمس مراكز الآخرين سيتعرَّض هو الآخر للطمس وبكلّ الأساليب، ومن يريد من المراكز الأخرى أن تُقدِّم له التنازلات تلو التنازلات فلن يكون قادرا على إدارة ما يُراد له أن يديره بنجاح مما يجعل الفشل مرافقا له أينما حلّ وشتائم المواطنين تلاحقه إلى أن يرحلّ بإرادة أو يُرَّحلّ بالقوّة.

ولأن الحقوق متماثلة، والواجبات متباينة، والمسؤوليات متعددة، إذن: لا يمكن لهذه المعطيات أن تكون مقتصرة على مركزٍ واحدٍ، ولكن ينبغي أن تدور حوله بقوّة جذبه لها إرادة وإدارة متماسكة.

وكما أنّ الإنسان خُلق مركزا في أحسن تقويم؛ فلا يتطابق مع أيّ مركز آخر في قدراته واستعداداته وخصوصياته الفردية والجماعية والمجتمعية، فهو على الأرض أين ما وجد أو وقف أو جلس هو المركز، وهكذا الآخرون كلّ منهم على الأرض هو المركز من خلال النقطة التي يكون عليها وإن تحرك إلى الأمام أو إلى الخلف أو إلى أحد الجانبين؛ فمركزه يتغير بتغيُّر مكان وجوده على الأرض أينما تحرَّك على أديمها، وبما أنَّ الأمر كذلك خَلقا إذن: لماذا لا يكون الإنسان مركزا أين ما وُجد؟ فالوطن الواحد لا ينبغي أن يكون فيه مواطني العاصمة هم المركز والآخرون أطراف على الحدود مع تباين المسافات قربا وبعدا، بل يجب أن يكون المواطن على تراب الوطن مركزا أينما وُجد من الحدود إلى الحدود من خلال المساواة في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمل المسؤوليات التي بها تتوافر مشبعات حاجاتهم المتطوِّرة في أي مكان هم فيه مركز دون تمييز.

وجوبية التَّمركُزْ:

إنّ مصطلح (التطرُّف) لشد ما نسمعه متداولا على الألسنة بالمعنى الذي أُريد له أنّ يفهم به؛ ذلك أنّ الذين أرادوا المصطلح بهذا المعنى يجعلون من أنفسهم نقطة الارتكاز التي يقوم عليها ميزان الحقّ والعدل بكفتيه، وفي رؤيتهم أنّهم يحققون التوازن الفكري ويميّزون الفضيلة عن الرذيلة وفق مقياس الارتكاز الذي اعتمدوه؛ ولهذا فهم يرون أنّ كلّ من ابتعد عن هذا المركز ووقف في طرف بعيد عنه يكون متطرّفا؛ فهذه نظرة

تنطلق من الأنا التي تعبِّر عن بعض مكنونات النفس وتفكير العقل في النظرة إلى الآخر والتقليل من شأنه، ومن ينطلق من هذه النظرة فقد افترض وقوف الآخر على طرف بعيد عن المركز الوسط حسب اعتقاده.

هذه الرؤية تعد صرخة في وادٍ ما لم تحاور الآخر من منطلق تعدد المراكز، فتتباعد في هذه الرؤية مفاهيم المصطلح مما يؤدِّي إلى توطيد التباعد في المواقف، ويصبح الحوار نوعا من الهذيان عندما تُحوَّل القضية إلى تعريف التطرّف حسب الموقع الذي تشغله الأنا في القرب منها أو البعد عنها.

التمركز وكمون الحلّ:

لسياسيٍ وباحثٍ متقصٍ للحقائق أن يفترض وجود علاقة قوية بين من يرى وجوب التمركز على نقطة واحدة ومن يرى كمون الحلّ في التطرّف ذاته.

إنَّ البحث في تعدد المراكز ضمن انساق متنوّعة بحسب الخط العمودي الذي يطرح تمظهرات يكون على أساسها انبعاث طروحات مختلفة، تعكس في الوقت ذاته المركز الواحد الذي يحاول أن يكون كما يرى نفسه مركزا وحيدا دون أن يحاول النظر إلى ما حوله، وهذا يتأتّى بطبيعة الحال من الأساس الفكري الذي بُني عليه الذي يحاول أن يلغي الآخر، ويضعه في مكان ليس له مكانة، وهنا تكون الأنا مكتسية بلون الانفصام الفكري الذي يلغي المسافات ويحجم الرؤيا، مما يؤدِّي إلى انفتاق انساق جديدة يكون عليها الآخر الذي غُيّب ولم تصبح له أي كينونة يستطيع من خلالها أن يكون طرفا في معالجة ما يحدث وعلى كلِّ الأصعدة، فيحاول أن يلملم نفسه وأحواله وفق ما يراه، ويعيد إنتاجه ضمن النظرة التي يرى من خلالها الحلّ.

إنّ من يرى وجوب التمركز على نقطة واحدة يكمن فيها الحلّ عائد إلى أمرين هما:

_ السياق الفكري الذي يرى من خلاله أنّ المركز الواحد هو الحلّ الوحيد الذي ليس له بديل مهما كانت البدائل، وهذا ما يمكن أن يسمّى بالتقوقع الفكري الذي يرى كلٌ من المركز والتطرّف أنّه الوحيد الذي يقول الحقيقة، وهذا يفضي إلى عدم تحديث الفكر ومعاودة الحوار المستند للعقل والمنطق والتجارب؛ فالتقوقع الفكري هو عدم القدرة على التغيُّر والتفهُّم والاستيعاب والتحليل والحلّ للمشاكل العالقة من معضلات ومستجدات تطوُّرية حاصلة، وفي مختلف مجالات الحياة الخاصّة والعامّة أيّا كانت، ويظهر المتقوقعون عاجزين أمام المتغيّرات الجديدة ومستجداتها مما يؤدّي إلى تراجعهم، ومن ثم عدم قابليتهم وقدرتهم على التحليل والتطوّر.

إن التصلُّب في الفكر والتعامل والممارسة المختلفة بغير حقّ يؤدّي إلى التقوقع الذي نهايته التراجع والوقوع في الفخّ بسبب عدم التفهُّم والإدراك للمتغيرات الحاصلة في المحيط العالمي، كما أنّ التصلُّب والخشونة في الرأي والممارسة تخفي عن صاحبها الخفايا، فالخشونة والتصلُّب بغير حق يؤدّيان إلى النفور من أصحابها وبالتالي يتحولان إلى إعاقة في حركة التغيُّر والتطوُّر لديهم؛ فالخشونة والتصلُّب الفكري لا يكونان إلا ضدّ الآخر الذي يتعرَّض في دائرة الممكن إلى الرفض والقبول والتغييب والإقصاء، وهنا تكمن علل المشكلة وتزداد الفجوة امتدادا عن الآخر.

_ أمَّا دلالات المرونة في الفكر والممارسة على عكس ما تدلّ عليه الخشونة والتصلُّب؛ فبقدر ما يكون الأنا مرنا يكون أكثر حكمة تجاه الآخر؛ فالمرونة تشعر الآخر بالطمأنينة كما أنّها دليل لتفهُّم ظروفه التي

بتفهُّمها يتمّ استقطابه واستدعاؤه إلى ما يجب أن يكون من أجل الجميع، وكلّما ازدادت الليونة والتفهُّم ازداد النفوذ؛ لأنّ التفهّم يراعي مصالح الجميع وحتى شطحاتهم وتطلعاتهم التي لا تشكل ضررا على أحدٍ؛ فالاعتراف بالآخر والتشارك معه على البيِّنة هي القوّة الحقيقية في الصعود واستمرار البناء السليم والانسجام المتواصل في سبيل الإنجاز وصناعة المستقبل الذي فيه الأمل.

وعندما يرى الأنا نفسه أنّه الأكبر أو الأقوى؛ فليعلم أنّه مهما قوي أمام توحُّد قوّة الجميع لن يظلّ إلّا الأضعف أمام الجميع؛ ولذا فالأفضل للجميع ألّا يكون من جنسهم أحد كبير ومتكبِّر عليهم، والأفضل لمن يرى نفسه أنّه الأكبر على قومه أو شعبه أن يعيد نظرته لنفسه ويقيِّمَ حاله ثم يقوِّمها بقوّة النّاس التي وحدها تستطيع أن تجعله الأكبر مكانة بينهم متى ما اعترف بأنّهم سادة وقدَّرهم بالفضائل والقيم التي قدّروه بها وجعلوا له مكانة بينهم.

أمّا إذا تحقّقت هيمنة الأنا على الغير؛ فتكون هيمنته هي المضرَّة الرئيسة في الحيلولة دون أن يفكِّر الأنا في صحة هذه الفكرة أو صلاحها أو مناسبتها أو خطئها أو فسادها، كما أنّ الفكرة أيضا تسهم إسهاما كبيرا في الحيلولة دون تفكير المرء في صلاح أفكار أخرى، وهيمنة فكرة من الأفكار على عقل المرء تدل على وجود قدر من انغلاقه عن العالم الفكري الذي حوله؛ فالهيمنة الفكرية ستار فكري يكتنف صاحب الفكرة فيحجبه عن العالم الفكري، هذه الهيمنة التي تشيع لدى الكثير من البشر في جميع أنحاء العالم أحد المكامن الرئيسة لتمزُّق البشرية، وعلى النطاق الأصغر تمزُّق المجتمعات إلى فئات مختلفة في مجالات السياسة

والاقتصاد والمعتقدات والقيم الاجتماعية والفضائل الإنسانية؛ ممّا يسهم في جعل عملية تحقيق التماسك الاجتماعي والشعبي مهمة أشق.

ومن تجليات انحسار الهيمنة ومظاهر الانفتاح على الفكر الآخر أن يترك المرء في فكره هامشا لاحتمال خطئه الفكري، وأن يدرك أن الفكرة لا تتضمّن بالضرورة الحقيقة كلّها؛ لأنّ الفكرة مكوَّنة من عنصرين: ذاتي وعنصر موضوعي ذوي نسبتين مختلفتين في بنية الفكرة، بينما تشتمل الحقيقة على قدر أكبر من العنصر الموضوعي، وأن يدرك المرء أنّه لا حكر لأحد على معرفة الحقيقة.

وبانحسار الهيمنة الفكرية وبالانفتاح الفكري تُمَدُّ جسور الاتصال بين الأنا والآخر، وتتعزّز ظاهرتي التغذية الفكرية والتأثير الفكري المتبادلتين، وبهذا الانحسار، وهذا الانفتاح يصبح الموقف الفكري مماثلا أو عاكسا لحقيقة تكوين الفكر من ذات وموضوع، وبالتالي يتمّ التقارب الفكري الذي يسهم في التماسك الاجتماعي علائقيا، وهو التماسك الذي يحتاجه الأنا والآخر على حدٍّ سواء.

ولذا؛ فإنّ إلغاء الآخر تنفرج له أسارير المتعنِّتين الذين لا يتجاوز تفكيرهم خطوات أقدامهم، فيحاولون الاقتناع بفكرة إلغاء الآخر التي تساورهم، فلا يجدونَ بديلا عنها، ويُنصِّبون فكرهم وأنفسهم ضمن المكانة التي لا يمكن إلا الركون إليها ولا حلّ إلّا بها، والتساؤلات التي يمكن أن تطرح هنا:

_ ألا يكون هناك بديل عمَّا يراه الأنا؟

_ ألا يكون لدى الآخر أحد المفاتيح التي يمكن من خلالها الحلّ؟

_ ألا يكون إلغاء الآخر علَّة مؤدّية إلى تعاظم مكانته وعلوّ شأنها؟

إنّ تمسُّك الأنا بأنّه المركز وغيره هامش، وتمسُّك الهامش بأنّه صاحب الحقّ في أن يكون مركزا على حساب ذلك الأنا الذي يجب أن يُهمَّش، إنّ هذه التشبّثات لن تؤدّي إلى حلّ إلّا إذا اعترفت بأن المركز حقّ للجميع مما يستوجب الالتقاء والتفاهم على إدارته بموضوعية دون أن توزَّع الأدوار بما يجعل البعض ضحية ولو كان من الغافلين.

ومن يرى أنّ الحلّ لا يكون إلّا في التطرّف ذاته، فقد يكون التطرُّف شاهدا هو الآخر على ذاته بأنّه ليس الحلّ، فكيف إذن لا يتمّ الحوار مع الفكرة قبل أن يتمّ عرضها عُملة مزوَّرة في السوق؛ فتؤدّي إلى تأزّمات مالية وتُطيح بالاقتصاد بين بائعٍ ومشتر.

ولذا؛ فلا داعي للتجاهل؛ فهو المؤدّي إلى إلغاء الآخرين وتحقيرهم وتغييبهم عن ممارسة الحقوق التي بها تتحقّق المنافع المشتركة دون أن يتضرر الغير، ومن لم يجد آذان مصغيَّة تسمعه وتُسهم في توفير ما يُشبع حاجاته المتطوِّرة، ليس له بدٌّ إلّا أنّ يتطرَّف بعيدا ويتخندق لمقاتلة من كان سببا في تهميشه وإقصائه وتحقيره وتغييبه وعدم الالتفات إليه ولو بطرفة عين.

وهنا يصبح المركز هو السّبب بإسقاط كلّ الحلّول التي من شأنها أن تلغي التطرّف وتدخله ضمن خريطة جديدة يكون على أساسها الحلّ بتعدد المراكز التي فيها يُقدّر الإنسان ولا يهان.

إنَّ تشبّث الأنا بما هو عليه وتشبّث الآخر بما هو عليه، يجعل كلا منهما في حالة تطرُّف؛ إذ لا لين ولا مرونة ولا تقدير ولا اعتراف بما يجب، وكذلك يصبح التساوي في التشبّث بالمرتكز الذي يؤجّج نار التطرُّف في كل صغيرة وكبيرة.

وهنا: التشبّث لا يؤدّي إلى الاندماج والتوافق والانسجام والتعاون والاستيعاب ولا حتى التكيُّف، بل يؤدّي إلى ما يظهر التطرُّف في الفكرة والقول والفعل والسّلوك مما يجعل المفاجئات الدموية مفجعة ومصارف الدّم تطالب بالمزيد.

فالتشبُّث بما لا يجب لا بدَّ أن يواجه بالرفض، أمّا التشبّث بما يجب حتى وإنْ واجهه الرفض من البعض الذي لا يُقدِّر الأنا ولا الآخر؛ فلا يمكن أن يكون للرافضين فيه حُجَّة أو مؤيِّدين موضوعيين؛ ولذلك يبطل؛ ذلك أن السياق العام للنسق الإنساني يشير إلى أن الفضائل والقيم هي المرضية لتوافقات النّاس بإرادة؛ ومع ذلك فلكلّ قاعدة شواذ.

وإذا ارتأت الأنا أنّه لا حلّ للمشكلة مع الآخر إلّا وفقا لرؤيتها أو وفقا لثقافتها أو لمعتقدها؛ فهي لا تملك الاتباع، ولا مفاتيح الحلّ للمشكل الإنساني، وفي هذه الحالة توصف بأنّها أنا متعصِّبة لوجهات نظرها وأفكارها ومنحازة لرغباتها؛ ولذا لا تتمكن من تكوين علائق مع الآخر، فعلاقتها تكون ضمن المركز الذي تتمركز عليه، فهي تعيش حالة من الانكفاء والجفاء فلا تتمكن من الوصول إلى الآخر أو حتى التقرُّب منه على سبيل التعرف على أفكاره وآلامه وأحلّامه، أو حتى في طريقة تفكيره التي في كثير من الأحيان يكون على أساسها الوصول إليه ومحاولة الاندماج معه، وصهر كلّ الخلافات والمشاكل والعوائق في بوتقة إظهار الحقيقة: (نحن سويًّا) و (نحن معًا).

فعندما تنظر الأنا لنفسها وكأنّها العالم بأسره، تصبح واهمة بما تمتلئ به من ظنون بأنّه لا يوجد شيء خارجها؛ فهي كما تزعم الأفضل وعلى كلّ المستويات، تعتقد فيما تسلك ولا تعتقد في سلوك الآخرين؛ ولهذا لن تكون قادرة على القيادة الجامعة، بل تصبح مقدرتها في اتجاه ما يفرّق؛

مما يجعل للتطرُّف مناخا مناسبا لإثارة الزوابع، وهنا يكون الصدام بين من يتمركز على أناته (شخصانيّا) ومن قرّر مواجهته بالمطلق؛ ولذلك تنعدم معطيات الالتقاء الذي يمكن أن يكون من خلاله الوصول إلى بداية عهد جديد في إذابة التشبّث، وجعل الأمور تسير وفق نطاق يلملم ما يحصل ويدخله في دائرة التوافقات التي يكون من خلالها تقريب وجهات النظر وتغيير الاتجاهات نحو ما يجب؛ فالمركز والتطرّف متقابلان في كلّ شيء إلى أن يجلسا حول طاولة واحدة (نحن معا) و(نحن سويا) وحينها يعرفان أنّهما كانا على وهم أنّهما المتقابلان في الوقت الذي هما فيه ليس كذلك؛ ولهذا الجلوس حول طاولة الحقّ المستديرة تجعل كلّ واحدٍ من الجالسين مركزا مساويا للآخر، وحينها تنجلي الحقيقة إن كانت النوايا مستهدفة تحقيق آمال مشتركة من أجل صناعة المستقبل الأفضل والأجود والأحسن والأهم والأعظم.

إنَّ تشبّث الإنسان بكلّ ما يتعلق به من أمر حقّ لا يستوجب الحرمان، والأمر هنا: كلّ ما يتعلق بالإنسان من سياسة داخلية وخارجية وحربٍ وسلمٍ وملكية وتعليم وصحة وكلّ ما من شأنه أن يُسهم أو يؤدّي إلى إشباع حاجاته دون أن يكون على حساب إشباع حاجات آخرين؛ ولهذا من الوجوب التشبّث بممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات، بل من غير اللائق ألّا يتشبث الإنسان بكلّ ما يتعلق بأمره الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وعلى كلّ المستويات الفردية والجماعية والمجتمعية، إنّه الأمر الطبيعي ومن خالفه خالف قوانين الطبيعة التي تأسست على الفضائل الخيِّرة والقيم الحميدة التي جعلت الإنسان هو المركز.

إنَّ تشبّث الأنا برؤاها في مقابل الآخر برؤاه لا يؤدِّي إلى حلّ، بل في بعض الأحيان يؤدِّي إلى التطرُّف مع استخدام أشدّ الوسائل عنفا ودمويةً، وبالتطرّف قد ينتزع الآخر اعترافا يتمكَّن به من الجلوس على طاولة التفاوض والمراجعة التي تجعل كلّ طرفٍ خيرَ مستمعٍ لآخر جالسًا حول طاولة التفاوض المستديرة على قاعدة: (الحقّ للجميع ودون استثناء)، وتجعله أيضًا خير متحدثٍ عن أمره (سببا وعلةً)؛ ولذ لو لم يكن الحلّ كامنا في التطرّف ما تطرّف من تطرّف فعلا وسلوكا؛ ولهذا عندما يكون عدم الاعتراف بحقوق الآخرين وواجباتهم ومسؤولياتهم هو السائد، فلا يكون لهم حلٌّ إلّا التطرّف الدموي الذي لا يجب الدعوة إليه بأيّ علة أو سبب، بل الانفتاح على مجموعة من الاختيارات والبدائل التي تهيئ الإنسان إلى الاختيار بإرادة، وحلّ هذا الأمر بين الأنا والآخر يمكِّن كلا منهما من طي الهوة بمسببات التخلي عندما كانا يتشبّثان بأركان الحلّ المطلق، وبما أنّ الحلّ مؤسّس على الزوجية (الأنا والآخر)؛ فلا يمكن أن تستمد الحياة قوّتها إذا أُلغي الآخر، وهذا الأمر يخالف الأمر الزوجي الذي بُنيت الحياة عليه وغرست فيه نبتة الأمل.

ولأنّ الأنا قوّة والآخر كذلك فإنّ مقارنة كلا منهما بالآخر تجعلهما في تساوي القوّة، ولو جلس الأنا مع الآخر على قاعدة: (نحن معا) و (نحن سويا) مع فائق الاعتراف والتقدير والاحترام لكان الحلّ بينهما مؤسّسا على ما يجب، وقاطعوا الفرقة التي لا تكون إلّا بأسباب تمسُّك كل منهما برؤاه الخاصة وتشبّثه بها.

ولذا فانّ التشبّث بالحلّ هو الحلّ، فالإنسان القوّة يتوحّد مع الآخر دون أن يجعله خصما أو يدفعه إلى أفعال التطرّف؛ ممّا يؤدِّي إلى الوهن والضعف كلّما تواجها.

ولهذا: يجب أن يكون المركز للجميع إن أردنا أن نَقْبُرَ التطرُّف إلى الأبد، وإلّا ستظهر قاعدة: (إن عدتم عدنا)، وحتى لا يكون التشبّث قاعدة في غير محلّه؛ فعلى الأنا والآخر أن يكونا على قاعدة: (المرونة الاستيعابية) التي بها يُعطي كلّ ذي حقٍّ حقّه، وبها يكون هامش القول الحقّ، والفعل الحقّ أكثر اتساعا، وبها تجد مشاعر الاعتراف والتقدير حيّزا لها، وتجد المكانة مكانتها، ويُعتمد المنطق الحُجَّة ويجد كلٌّ فسحته في ممارسة الأمر بإرادة حرة.

إنّ رفض الآخر أو رفض آرائه قد يدفعه إلى التطرّف، وكلّما اشتد الرفض اشتدَّ التطرّف، وفي هذه الحالة يصبح الأمر كمن يرمي حُزما من الليف على النّار وهي مشتعلة، فينبغي للحلّ أن يكون على معطيات الوجوب وأهمية اتباعه ومعطيات الوجوب ومبرراته أو الإحجام عنه؛ ذلك أنّ الحلّ يؤسّس على حقائق؛ فلا يكون وقتيا لفترة محدودة، بل لا بدَّ أن يكون للزمن القادم برمّته؛ فالحلّ الوقتي ليس هو الحلّ، بل هو في حقيقة الأمر يمثّل عثرة جديدة تجتمع حولها أفكار جديدة تؤجّج الخلافات وتمنحها وقتا يساعدها كي تثور مرة أخرى، وهذا الأمر يؤجّج كلّ ما يكون سببا في عدم الالتقاء بين المركز والتطرّف (بين الأنا والآخر).

إنَّ اتساع المسافة بين المركز والتطرّف في البداية يستوجب تنازلات وطنية وأخلاقية كي يحدث التقارب الذي يكون فيه:

. فهم كلّ طرفٍ حقيقة الطرف الآخر.

. محاولة الكشف عن نقاط الاختلاف والاتفاق.

. طيّ الهوة بين الطرفين يبعد شبح الفشل والخوف والتوجس.

. رسم معالم المستقبل الواجب صنعه بعد نهاية كلّ العلل والمسببات الكامنة وراء تأزُّمات كلا الطرفين.

تقديم التنازلات عن تلك الاشتراطات التي نتجت أيام المواجهة الباردة والمواجهة الساخنة بين المركز والتطرّف تكمن فيها الحقيقة وأساليبها وكيفية إظهارها من أجل التوصل إلى حلٍّ مؤسّس على كفتي العدل الذي تزول به المظالم ويُكَفُّ به تقديم الضحايا قربانًا عن غير طاعة.

وأيُّ تنازلات تُقدّم اليوم إنْ لم تكن مبنيّة على الحقائق لا تكون غدا سببا من أسباب التقارب، بل إنَّ الذين يتنازلون اليوم بغير حقٍّ سيتخاصمون غدا بأسباب التنازلات، والذين يلجأون إلى الحقيقة معلومة بمعلومة وحُجَّة بحجَّة أولئك هم الذين يشخِّصون الحالة، ويعرفون مكامن العلل التي من خلالها يتوصَّلون إلى درجة التوافق دون إعطاء أي تنازلات.

إنَّ الدخول في تنازلات ايجابية يؤدِّي إلى حلّ مرضٍ، أمّا تقديم التنازلات السلبية فلا يؤدِّي إلى حلٍّ مرضٍ، حتى وإن توهَّم أحد ذلك فلا يكون الحلّ نهائيا؛ ممّا يجعل المشكلة تظهرُ وتعود إلى ما كانت عليه؛ فبذور الفتنة المستقبلية تكمن في تقديم التنازلات السلبية وليس لها بدٌّ من حلٍّ إلا بإحقاق الحقِّ وفق معطياته ومبرراته ومكانه وزمانه وخصوصياته، وإلّا ستعود الفتنة تشتعل بحطب نار التطرّف.

ولأنّه لا اختلاف بين من يقول: إنّ الحلَّ يتمركز في نقطة محدّدة ومن يرى أنّه لا حلَّ إلا بالتطرّف، فالحلّ أن تُفتح آفاق التقبُّل مبدأ بين الأنا والآخر دون طلب تقديم تنازلات مشروطة.

ولأنَّ التقبُّل حقٌّ فلا ينبغي له أن يصادر، ولأنَّه حقٌّ للطرفين فإن قُدِّم لهما تيسيرا فهو الذي يطوي المسافات بينهما دون تقديم تنازلات مشروطة، وإذا لم تُفتح آفاق التقبُّل ستظلّ الأنا مستقلة عن الآخر مثلما الآخر مستقل عنها إلى أن يعتمدا مبدأ التقبّل، حينها يصبح التواضع مُمكِّن من الالتقاء والحوار والنقاش ويتم التوصُّل إلى الحلّ الذي لا يكون إلّا من أجلهما، ومن هنا: يجب تعدد المراكز طالما هناك من يُفكِّر في أن يحتكر المركز ويُقصي الآخرين عنه، ومع ذلك لا ينبغي الإغفال عن أهمية تقدير المركز العام الذي تأسس بإرادة لا بإكراه من أحد ولا على حساب أحد، بل تأسّس وفقا لقاعدة التداول السلمي على السلطة.

إنّ الأنا والآخر يشتركان في النوع الإنساني الذي يكتسب الأفكار التي تحدّد السّلوك متأثرة بالدوافع؛ وهذه الدوافع متنوّعة المصادر ومتعددة الاتجاهات، تفرض على السّلوك وسائل وأدوات في التعبير عن القناعات الفكرية؛ ممّا يستوجب وقفة عند الدوافع التي تحدد السّلوك في اختيار أدوات التعبير.

أثر الدوافع في سلوك المتطرّف:

التطرُّف عندما يُنظر إليه مجردا عن الذات والموضوع، ما هو إلا قضية فكرية بداية ليس للسلوك أثر فيها، وإنما تتولّد القناعات العقلية من الفكرة، وهذه القناعات تنبع غالبا من المتضادات الفكرية التي لا تجعل للآخر اعتبارا في بعض الأحيان، ويضاف إلى ذلك مؤثرات خارجية من المجتمع والبيئة تنمو مع نمو الإنسان حتى تصبح جزءا من شخصيته التي من الصعوبة أن تنفك عنها، الأمر الذي يجعل الأنا على خلاف مع الآخر في أشياء منطقية حتى تصبح له سلوكا.

وعلى هذا فالسّلوك لا يرجع إلى الذات، وإنما يترتّب على الأفكار التي تثيره وتحرّكه الدوافع وتحدد اتجاهه، فالفكرة المجردة هي الأساس بداية في تحريك الدوافع ومن ثَمَّ إثارة السّلوك وتحديد اتجاه الأفراد وكيف يتصرَّفون.

إنّ الدوافع عادة تنشأ عن أسباب داخلية ذاتية وخارجية تؤدّي إلى سلوك الفرد وتصرّفه وفق ما يتصرف به معظم الأفراد في المجتمع الذي يعيش فيه، وبالكيفية التي يتصرَّفون بها؛ ومعظم الأفراد لديهم إحساس واضح بما يحدث ويؤدِّي إلى دفعهم للقيام بفعل ما انطلاقا من المركز سواءً أكان المركز يتمثل في الأنا، أم أنّ آخرين يرونه في الآخر حسب ما اكتسبوا من معارف وخبرات؛ ولذا فللسلوك مثيرات تستحضر التهيّؤ والاستعداد والإرادة وتجعل الإنسان متأهّبا للإقدام على أداء الفعل مهما كانت النتائج المترتّبة عليه، كلّ وفق اتجاهه الذي أُعِدَّ له أو تشرَّب معلوماته سواء أكانت تلك المعلومات خاطئة أم أنّها صائبة.

إنَّ مثيرات السّلوك هي من الأسباب التي تدفع الإنسان إلى الحركة قبل وقوع الفعل، وهذه المثيرات هي التي تستفزّ الإنسان بالتهيّؤ وتوجهه إرادة لاستمداد القوّة واستمداد وسائل إظهارها بغض النظر عن كونها شرعية أم غير شرعية؛ فكلٌّ حسب وجهته التي ارتضاها بإرادة.

فالإنسان المحترم تثيره الأفكار التي تولِّد عنده شعورا اتجاه الآخرين كما تولِّد ردود أفعال اتجاههم، مما يجعله بعد تهيّؤ واستعداد وتأهب قادرا على أن يُقدِمَ على فعل مؤيدٍ أو فعل معارضٍ لذلك الفكر وأصحابه.

إنَّ استجابة الإنسان لمثير ما في سلوكه، يتوقف على مكتسباته من الأفكار والعادات والتجارب، ومن ثَمَّ طرق التصرف التي تعلّمها من قبل استنادا إلى معرفته السابقة؛ ممّا يجعل تصرُّف بعض الأفراد غير مؤسّس

على أهداف واضحة محدّدة، والبعض الآخر يتّصف بالتحديد الدقيق في موقف ما وفق أهداف واضحة محدّدة، وبعضا منهم يكون سلوكهم لأجل الدفاع عن الأنا بصرف النظر عن الحقِّ والباطل أو الصواب والخطأ، وفي هذه الحالة تكون نظرة الفاعل لهذا السّلوك نابعة من الأنا التي يعدها تمثّل المركز.

أمّا اتجاه السّلوك فيتمثل في العادات التي اكتسبها الفرد والمهارات التي يتمتَّع بها والقدرات التي يمتلكها، وكثيرا ما نجد الدوافع هي التي تحدّد اتجاه السّلوك، من نجاح وفشل ومن ثأرٍ وانتقام ومنافسة وصراع وصدام واقتتال وإقصاء وتغييب وتسفيه وتقليل شأن؛ فكلّ السالب منها إن حدث ترتّب التطرُّف عليه بأسباب موضوعية.

إذن: فالدوافع التي تعمل على توجيه السّلوك متباينة لدى الأفراد، منها: الدوافع النفسية والغريزية والفكرية وكلّها قادرة على تحديد سلوك الفرد وتوجيهه؛ ممّا جعل الدوافع متأثِّرة بالحاجات ومشبعاتها، وهذه الدوافع التي تؤثّر في السّلوك وتؤطّره وتحدد اتجاهه، تتطوَّر وتتشعَّب من خلال الخبرات المتراكمة من التجارب والثقافة التي مصدرها الفكرة.

إنَّ الدوافع التي توجّه بالسّلوك تتطوَّر وتتشعب سلبا وإيجابا بتبني أفكار جديدة والتخلي عن أفكار أخرى أو محاولة الجمع بينها أحيانا، وهذا أمر يعمل على التأثير في الأفراد والتجمّعات خلال مسيرة الحياة، ومع ذلك فإنّ السّلوك لا يُمكِّن من الوقوف على الأصول التي نبعت منها دوافعه بالرغم أنّه ناتج عنها؛ وذلك لما يطرأ عليها من أفكار تُقرأ من وجوه متعددة وتخرج بمفاهيم متباينة للفكرة الواحدة؛ لذا نجد بعض الأفراد يتَّصفون برغباتهم القويّة في الانتماء الاجتماعي الذي قد ينشأ بسبب تأثير عوامل معينة في مجتمع معين، ومع ذلك نجد أفرادا آخرين

يرفضون هذا الانتماء في المجتمع نفسه، فيترتّب عليه اختلاف في السّلوك، وهنا تنشأ عللٌ تجعل أفراد البيئة الواحدة أو المجتمع الواحد لا يمكن أن يستقوا دوافعهم من مصدر واحد وإن اشتركوا في تجمّع بشري وجغرافي، فالتجمّع الجغرافي لا يُلغي تعدد المصادر الفكرية متنوعة الاتجاهات؛ ممّا يجعل الأحزاب السياسية والاتجاهات الفكرية في المجتمع الواحد تتعدد.

وكثيرا ما تتداخل أنواع من الدوافع التي تُحفِّز السّلوك وتتأثّر به، فقد تتمثّل الرغبة لدى بعض الأفراد في اكتساب خبرات جديدة نابعة من دوافع الاتزان والحرص، كما يكون الانطواء والخوف دافعا للاقتناع بالواقع لدى بعضٍ آخر، وعلى هذه الدوافع يتحدّد اتجاه السّلوك؛ ونتيجة لذلك فإنّ بعض النّاس يتصرّف وكأنّه يبحث عن الجديد بصورة مستمرة، بينما يبدو بعضهم وكأنّه قانع بالأشياء المألوفة لديه وقد لا يرتضي التغيير وإن كان نافعا.

ومع ذلك فإنّ الفكر هو الأساس المؤثّر في السّلوك مرونة أو تطرُّفا وفقا للوجهة التي يتوجَّه الإنسان إليها؛ لذا لا يمكن لأحد أن يرسم صورة للتطرُّف أو المتطرّف قبل الوقوف على تلك الأفكار التي أنتجت الدوافع المؤثّرة في السّلوك وحدّدت اتجاهه في أقوال وأفعال أدّت إلى التطلّع من أجل تحقيق نتائج يمليها الفكر من بينها رفض التمركز على شخصٍ واحدٍ أو على رؤية واحدة لفردٍ أو جماعة معيَّنة، بل يجب أن يتمّ نقل المركز وتبادله من الأنا إلى الآخر أو العكس كلّ بإرادة مع وافر الشفافية.

ومن يفترض نفسه نقطة التمركز في الاعتدال والتوازن ظانا أنّه يعبِّر عن الفضيلة والقيم السامية والأخلاق الرفيعة، فقد حدّد مواقع الآخرين ومواقفهم تبعا لذلك، وبالتالي فهو يعطي مبررا للآخر أن يفترض الفرضية

نفسها، ومن هنا: تنشأ القضية المعيارية للتضاد الفكري؛ فالذي يُقرُّ سحق الآخر وإلغائه لمخالفة الرأي فقد ركب من التطرف مركبا.

إنَّ الأفكار المتضادة عبر التاريخ التي نمت وقيّمت الآخر بميزان الأنا، أنتجت مسميات للتضاد الفكري من (مركزٍ، ويمين، ويسار، ووسط، ويمين الوسط، ويسار الوسط، وكذلك اليسار المتطرّف، واليمين المتطرِّف)، ولكلٍّ وجهة هو موليها.

ومن هنا: إنْ نصّبت الأنا نفسها ممثلا لقيم الفضيلة ومركزًا لها، فقد حدّدت موقع الآخر تبعا لذلك وفقا للمقياس الذي ارتضته لنفسها دون استشارة الآخر، وغالبا ما يكون هذا المقياس الشخصاني متعارضا مع الآخر وقيمه وفضائله بنسب متسلسلة تصل أحيانا حدّ التصادم.

إنَّ مثل هذه النظرة التي تدَّعي أنّها قادرة على وضع الموازين وتدَّعي أنّها قسط ومركز يجب على الآخرين الدوران من حولها تعد فاقدة مبرراتها بما أنّها قرّرت أن تعارض أفكار الغير لمجرد أنّهم الغير، وبهذه النظرة فهي قد وضعت نفسها في المواجهة أمام فوهة المتطرَّفين الذين إن قرروا أصبح الموت مطلبا يتسارعون في نيله دون خوف وبلا تردُّد. ويصبح المتطرِّفون قادرين على اتباع أساليب التطرُّف المتنوِّعة التي منها العنف الدموي.

التطرُّف الإرهابي:

لبسٌ وغموضٌ حفَّ مفهوم الإرهاب وجعل من وصفه تطرُّفا، وهو ليس كذلك؛ فالتَطرُّف مجاله فكري وهو أشد تأثيرا من الإرهاب الذي لا يخرج عن كونه استعدادا نفسيا وإعداد عدّة بها تُغرس الثقة في النفس حتى تطمئن، وعلى أساسها يحسب الخصم حِساباته في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع دون استعجال، وإنْ استعجل بأسباب الغفلة اعتداءً

على الآخرين تكون المواجهة له بالقوّة عُدّة وعِتادا، من خلال الإقدام على الفعل المحقق للتوازن بالقوّة الرادعة؛ ممّا يجعل من أعد العُدَّة واعتدى بغير حقّ متطرّفا، ويجعل من يقابله مقاوما بعد إعداده عُدَّة وعتادا ليس بمتطرّفٍ.

وعندما يخرج الأنا أو الآخر عن حدود الاستعداد عُدّة وعِتادا، يصبح الفعل المُقْدَم عليه موصوفا بالاعتداء، وحينها تتغيَّر الأمور من حالة الوقوف عند حدّ الاستعداد عُدَّة وعتادا إلى خارج الحدود مواجهة وقتالا بين معتدٍ ومُعتدى عليه.

والإرهاب عند المسلمين ليس التخويف ولا الاعتداء على الآخرين ولا الاعتداء على حقوقهم وأوطانهم وممتلكاتهم ومعتقداتهم وأعراضهم، بل هو فقط إعداد عُدة وامتلاك عِتاد، وأخذٌ للحذر حتى لا تكون المفاجئة والمباغتة والأخذ على حين غرَّة.

ولأنّ الإرهاب مقتصر على توفير الوسيلة والأداة الممكّنة من الحماية والوقاية؛ فهو لم يكن من حيث المفهوم في القرآن الكريم عند المسلمين اعتداءً أو إزهاق أنفُسٍ بغير حقّ، ولهذا أمرَ الله تعالى المسلمين بإعداد العدّة لأجل إرهاب من يتربَّص بهم الدوائر أو يكيد لهم المكائد اعتداءً وظلمًا حتى يقف من كان يُفكِّرَ في ذلك عند حدوده ولا يعتدي، {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِّنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ}[64]. وإنْ اعتدى فلا مجال للوقوف عند حدود توفير العدّة والعِتاد المرهِب للخصم والأعداء، بل يصبح الفعل الواجب أن يَفعَل هو: الفعل المتعدي إلى الإقدام على فعل الاعتداء بمثل ما تم الاعتداء به على من أسلم وجهه لله، {فَمَنِ

[64] الأنفال 60.

اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}[65]. ولهذا فالمعتدي الأوّل ظالم متطرّف، والمعتدي الثاني مقاوم لاعتداء المعتدي حتى يوقفه عند حدِّه، وعند هذا الحدّ لا توصف أفعاله بالمتطرّفة، ولكن إنْ زاد الاعتداء المقاوم عن الحدّ يصبح تطرُّفا حاله كحال فعل المعتدي الأوّل.

ولذلك: فإنّ الهدف من الإرهاب في القرآن الكريم هو الوقوف عند حدّ إعداد العدّة التي ترهب الآخرين وتُحدُّ من العدوان أو تمنعه. ولو تمّ استخدام هذه العدّة فإنّه من الممكن أن تلحق ضررا شديدا بالآخرين. ولأجل أن يتمّ تفادي ما قد يحدث من أضرار يقف الخصمان المتصادمان عند حد إعداد العدّة كما هو حال الهند وباكستان، البلدين المنفتقين من بلدٍ واحدٍ؛ فَقبل أن تمتلك باكستان السّلاح النووي كانت مُرتهبة من السّلاح النووي الذي تمتلكه الهند؛ فعملت على امتلاكه، وبعد أن امتلكت السّلاح النووي أصبح الشعور الإرهابي متقاسما بالتساوي بين الجارتين اللتين تقف كل واحدة منهما عند حدودها تحسب الحسابات من أجل ألّا تكون الكارثة على الجميع، حِسابات لم تكن في حُسبان الهند قبل أن تمتلك باكستان السّلاح النووي.

إنّ ما جرى ويجري بين الهند وباكستان من تسابق نووي مرهب لكل منهما جعل الوفاق سائدا بين الطرفين، وجعل للاعتداء حدّا، وللحرب حدّا، وللتطرُّف حدّا.

ولذا؛ فمن يمتلك السّلاح النووي لا يُرهبه إلّا من يمتلك السّلاح ذاته، أمَّا أولئك الذين لا يمتلكون أسلحة نووية فهم المرتهبون ممن يمتلكونه، ومن يمتلكه يعرف الخطورة الشديدة من امتلاكه؛ ولهذا يعمل كل ما من شأنه أن يحول بينه وبين امتلاكه من قِبل الآخرين؛ فما يجري في كوريا

[65] البقرة 194.

الشمالية وإيران من جهود لامتلاك أسلحة نووية هو بدون شك مُرهب جدا للذين يمتلكون أسلحة نووية.

إذن: الإرهاب من حيث المفهوم عند المسلمين لا عدوان فيه، أمَّا من حيث المصطلح فالإرهاب الذي تسوِّقه وسائل الإعلام هو العدوان بغير حقّ؛ ولهذا فالفرق كبير بين المفهوم والمصطلح الدلالي للإرهاب الذي هو في حقيقة أمره لا يخرج عن كونه جهودا تبذل لمنع وقوع الاعتداء؛ وذلك من خلال السعي الحثيث لتجميع أكبر قدر ممكن من القوّة المتنوعة والمتعددة لمنع وقوع الاقتتال، والاعتداء على حرية الإنسان أينما كان، وبالتالي فإنّ هذا الإعداد يمثل معادلا موضوعيا للأمر: (قف عند حدك)، ولا تفكِّر في الامتداد على حساب الآخرين وحرياتهم وممتلكاتهم وأوطانهم، (قف عند حدك)، وإن حاولت الامتداد فسيكون الروع شديدا بالعدّة التي تم إعدادها وباستماتة مستخدميها تكون العدّة قادرة على حسم المعركة في الظرف المناسب.

هذه العدّة المتنوعة والمتعددة والمتطوِّرة يمكن لها أن تجعل الثمن المدفوع عن الامتداد باهظا وليس بالأمر الهين.

إنّ من يقوم بإعداد عُدَّةٍ في حدوده الجغرافية والوطنية دون سعي منه للامتداد على حساب الآخرين ومصالحهم فعمله يُعد خاليا من العدوان، ومجردا من الضرر، ولا تطرُّفَ فيه؛ لأنّه أعد ذلك ليمنع وقوع العدوان عليه أو على مواطنيه وتراب وطنه وما فيه من كنوز.

بينما تتحوّل العُدّة إلى أداة من أدوات التَطرُّف في الفعل والسّلوك إذا استخدمت في تعدي حدود ما يجب، وحينها يوصف من يأمر أو يقوم بهذا الفعل بأنّه متطرِّف.

وهكذا فإنّ الإرهاب من حيث المفهوم لا يتداخل مع التَطرُّف على الإطلاق، بل يتقاطع معه في أنّ الإرهاب مانع للاعتداء وداعٍ إلى منع العدوان، بينما التَطرُّف فكر يدعو إلى أفعال عدوانية ويحثُّ عليها.

إلا أنَّ السائد في أوساط الفكر الغربي، ولدى العموم الإعلامي اتجاه يسير نحو قولبة المفهوم في مصطلح الإقدام على فعلٍ ينجم عنه ضرر يحيق بالنّاس والأشياء، وينجم عنه إهلاك الآخرين والنيل من مقدراتهم المادية بغير حقّ إذ لا منطق ولا شريعة تسنده ولا يسوّغه قانون؛ ممّا جعل الإرهاب اصطلاحا هو الفعل المتحقق بعد إعداد العدة، وهذا المصطلح لا علاقة له بمفهوم التطرُّف في الدين الإسلامي.

إذن: هناك افتراقٌ موضوعيٌ بين المفهوم الحقيقي للإرهاب وقالبه الاصطلاحي، فالذين أطلقوا هذا المصطلح أطلقوه لما لا يقابله، فمفهوم الإرهاب يوجب التوقُّف عند فعل الاستعداد وإعداد العدّة، أمّا المصطلح المسوَّق للإرهاب هو الشامل لكل من الفكرة والعُدّة والفعل؛ ولذا فإنّ دلائل المفهوم تقف عند إعداد العدة، بينما تحاول مرامي المصطلح التوسع لتشمل الاستعداد والإعداد والفعل جميعا.

إنّ الفعل من بعد إعداد العدّة بالنسبة إلى المسلمين لا يُسمى إرهابا، بل هو فعل آخر يأخذ صفته ممّا يتعلق به سواء أكان المتعلق به اعتداءً أم حربا أم احتلالا أم فناءً وإهلاكا، كما حدث في اليابان في مدينتي هيروشيما وناجزاكي عندما ألقيت عليهما القنابل الذرية إفناء وإهلاكا، وبذلك لقد تعدى مفهوم الفعل المتحقق إلى مصطلح الإفناء والإهلاك.

ومع أنّ لكل مفهومٍ دلالاته، ولكل مصطلح دلالاته فإنَّه لا فواصل بين الفكر وإعداد العدّة والاستعداد التام، وما يقوم به الإنسان كمترتب

عليها، وهنا يبرز الفارق الموضوعي في أنّ الحرب يمكن أن تشبّ نيرانها بمعطيات موضوعية والاقتتال كذلك، أمّا الإرهاب فهو: أخذ الحيطة مع وافر الحذر والانتباه عن وعي وإرادة مع كامل التهيّؤ والتأهُّب للإقدام على الفعل دون أن يكون الفعل هو الغاية، بل الغاية هي منع الفعل بما يتم إعداده من عُدّة لإرهاب العدو أو الخصم، الأمر الذي يحقق انتفاء العدوان والحرب، ويحقق ضمورا هو أقرب إلى الموت للفكر الساعي إلى الاعتداء بغير حقّ؛ لذلك فالقاعدة بالنسبة إلى الإرهاب: (قف عند حدك ولا تتجاوزه) وإن تجاوزته فسيكون الثمن غاليا، وإن بالغت من بعد ذلك ثم تطرَّفت في استخدام القوّة التي تُرهب الخصم فإنّ الأمر أصبح داخل دائرة أخرى ليست بالإرهاب، لكنّها التَطرُّف ولا شيء سواه.

ولذلك فإنّ التَطرُّف المؤسس على التهيّؤ والإرادة والاستعداد والتأهب والفعل هو الذي لا يقف عند حد الاستعداد والإعداد، بل يتجاوزه إلى الفعل. أمّا الإرهاب فهو الوقوف عند الحدود مع احترام الآخرين وعدم الاعتداء عليهم؛ ولذا فهو حقّ يجب أن يُمارس، وإن لم يمارس يصبح البعض مُرهِبا بما يمتلكه من قوّة، والبعض مرتَهَبا من امتلاك الآخر لتلك القوّة التي تهدده كلّما حاول أن يقف مستقيما على حدود وطنه، ومن يُحرم من امتلاك القوّة التي تجعل للآخرين حدودا يقفون عندها ولا يتجاوزونها يُدفع بتلك الممانعات إلى ارتكاب أعمال متطرِّفة بأساليب قابلة للكمون والظهور كلّما سنحت لها الفرصة.

إذن: لا استغراب أن يُولد التَّطرُّف أو ربما تطرُّفات تأخذ مسميات جديدة وصفات جديدة؛ بحثا عن التوازن المفقود لإعادة الاتزان.

وعليه: فالإرهاب من حيث المفهوم هو المؤسس على قاعدة: (فعل منع الفعل) الذي به يكون التوازن ويتحقّق الاتزان.

ولذا فما يشار إليه بالإرهاب في الصحف والإعلام العالمي ومن قِبل بعض الساسة في دوائر الغرب والشرق هو شكل من أشكال التَّطرُّف فعلا وسلوكا وليس بإرهابٍ.

ومع أنّ ما تم الاصطلاح عليه بالإرهاب أصبح مصطلحا سائدا فإنَّه من حيث المفهوم غير ذلك؛ فالمفاهيم أصبحت تستبدل بمسميات يثيرها السياسيون، وتتبناها وسائل الإعلام، وتُدوَّن من قبل التربويين في مقررات مدرسية بعد أن يتمّ الحذف عمدا لكل ما من شأنه أن يقلق الساسة في مراكز إصدار القرارات؛ فمصطلحا الفداء والجهاد في الإسلام أصبحا بين تخفيف وانعدام وجود؛ بسبب عدم إقرارهما كما كانا مصطلحين رائدين؛ وذلك تنفيذا لقرارات المراكز الرئيسة التي ترى أن صلاحيتهما قد انتهت بالرغم من أنهما منزَّلين تَنْزيلا لتنظيم العلاقات بين الأنا والآخر.

ولأنّ الإرهاب لا تعدي؛ فهو فعل إعداد العدّة بما يمنع العدوان ويحقق السّلام، {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا}[66]؛ ولهذا في الدين الإسلامي من لا يجنح للسلم امتثالا لأمر الله يكون قد دخل دائرة التَّطرُّف بما يقدم عليه من القول المؤثر سلبا والفعل المؤثر سلبا والعمل المؤثر سلبا وبغير حقّ؛ ممّا يجعل النتائج المترتبة عليه ضارة للجميع؛ فيترتب عليها انقطاع علائقي بين بني الإنسان.

[66] الأنفال 61.

الوَسيطية جزء من المشكلة أم جزء من الحلّ:

الوَسيطي لغة ثالثة ذات بُعدٍ ثالث، فهو من يقبل الجلوس بين طرفين بغرض جذبهما إليه؛ لتكون رؤاه الفكرية هي الحلّ، ولكي يصل الطرفان إلى ما يشاؤه الوسيطي عليهما بوضع راحتي يديهما مع راحة يديه؛ ليتمّ القبض الممكِّن من الجذب بقوّة وإلّا لن يصلا إلى المكان الذي يضع الوسيطي قدماه عليه، وفي دائرة الممكن احتمالات أربع:

الاحتمال الأوّل: أن يكون الجذبُ معسَّرا بما يواجهه الوسيطي من جهد مقاوم من كلا الطرفين المتطرِّفين؛ فالتعسُّر يكون مصحوبا بمرارة التنازلات المستوجب تقديمها في سبيل الوصول إلى الوسيطية، أو حتى الوسطية التي عليها الوسطي يبذل الجهد من أجل قبول الوسطية حلّا بغض النظر عمَّا في التنازلات من مرارة.

وفي هذه الحالة إن قَبِل الطرفان ذلك بداية، فقد لا يقبلانها وسطا ولا نهايةً، وهنا تكمن معطيات الانتكاسة الميسِّرة سُبل العودة إلى ذلك التطرُّف أو إلى تطرُّفٍ آخر.

الاحتمال الثاني: أن تكون نتائج الجذب معسَّرةٌ بما يواجهه الوسيطي من جُهدٍ مقاوم من أحد الأطراف؛ وفي مقابل هذا التعسير تكون نتيجة من يُقدِّم التنازلات سريعة أن يحيد عنها بسرعة أكثر؛ ممّا يجعله يعود إلى ذلك الطَّرف الذي جاء منه مجرورا بمجموعة من التنازلات.

ومن يكون معسَّرا في أمر جرّه بالقوّة الوسيطية بتنازلات يعرف أنّها سَتُلقي عليه عبئًا آخر لا يطيقه فكريا أو نفسيا؛ فهو كمن قبل بداية وتخلى وسطا وتطرَّف نهايةً.

الاحتمال الثالث: أن تكون نتائج الجذب ميسَّرة من كلا الطرفين مع ما يبذله الوسطي أو الوسيطي من جهد لجذبهما تجاهه. هذه الحالة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع إمَّا على احتمال اعتراف الطرفين بأنّهما كانا على غير حقّ فيما قاما به من تطرُّفٍ؛ فغلبت الموضوعية بعد نُضجٍ ورُشدٍ على تفكيرهما؛ فقرّرا العودة الميسَّرة. وإمَّا أنّهما لظروف مؤقتة قبلا بذلك دون أن يُشْعِرَ طَرَف الطَّرف الآخر بحقيقة أمره، ودون أن يعرف الوسطي حقيقة أمرهما أيضا؛ ممّا يجعل التنازلات المقدّمة بغرض أخذ ثمن لِيُسهِمَ في دعم الاتجاهين اللذين كان كلّ منهما متطرّفا عليه عن الآخر. أو من أجل أن يقترب الطرفان ماديا لتكون الخطورة ميسَّرة بينهما كلّ ضدّ الآخر.

الاحتمال الرابع: أن تكون نتائج الجذب غير متوازنة بسبب اختلاف قوّة شدّ أحد الأطراف عن قوّة شدِّ الطّرف الآخر، أو باختلاف قوّة توازن اليدين الجاذبتين لهما في دائرة الانحياز النسبي. فعندما لا تكون الأطراف متوازنة أثناء الجذب بقوّة الوسطي، يسبق أحدهما الآخر وصولا، وقد يغادر بأسباب تأخر الذي تعنَّتت به العلل والأسباب فأخّرته عن تقديم التنازلات أو تعنَّتت به في تفهُّم الظروف التي بها يتمّ استيعاب الطّرفين الآخَرين (المواجه للأنا في الطرف الآخر + الوسطي).

أمَّا إذا كان الوسيطي منحازا ولو قليلا لطرفٍ على حساب طرفٍ آخر؛ فإذا ما اكتشف الطرف المنحاز عنه للطرف الآخر بذلك التحيُّز الوسيطي ثار من جديد على الأخضر واليابس دون أن يستثني وسطيّا ولا آخر.

ومع أنّ كلّا من الوسطي والوسيطي هما في دائرة الممكن على التساوي دلالة ومفهوما، إلا أنَّ لكلٍّ منهما ما يخصَّه من دلالةٍ ومفهومٍ؛

فالوسيطي هو الثالث الذي يتوسط بين الأنا والآخر ليجرهما إلى حلّ بعد إعطاء تنازلات. والوسطي كذلك يعد هو الثالث بالنسبة إلى الأنا والآخر، ومن حيث خصوصية المفهوم فالوسطي هو الاعتدالي وليس العدلي، فالاعتدالي هو من يميل إلى العدل ميلا؛ ممّا يجعل الميل إلى العدل نسبيا يختلف من شخص لآخر قربا وبعدا، ولذا فإنَّ بلوغ العدل ليس الميل إليه؛ ولهذا فالوسطية تدعو إلى الميل إلى العدل وليس إلى الأخذ بالعدل هو كما هو، ولأنَّ الاعتدلية ميلية؛ فالميل (إلى) يُعد استحسان من باب الجواز (يجوز ولا يجوز) حسب الحالة والظرف النفسي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والمصلحة، وهذا ما ليس بعدلٍ، العدل هو الأخذ بالحقّ والعمل على إحقاقه هو كما هو، بأساليب متنوعة حيث لا إكراه، بل كلّ شيء على الإرادة.

ولأنّ الوسطية اعتدالية والاعتدالية تميل بالأنا والآخر عمَّا هما عليه تجاه العدل؛ فإنّ الاتجاه نحو العدل يُمكِّن من الأخذ منه ما يمكن أخذه وترك ما لا يرغب أحد الأطراف الأخذ به. ولكن هل هذا من العدل أم أنَّ العدل هو الأخذ بالحقيقة التي إن تمَّ الأخذ بها بإرادة أصبحت الهوّة بين الأنا والآخر في خبر كان، وإذا ما تمَّ ذلك فلن يكون هناك مكانٌ لوجود من يدَّعي وسطية أو وسيطية.

وإذا قبل البعض أنّ الميل إلى العدل مرحلة ضرورية لمن كانوا متطرِّفين، إذن ألا يكون ذلك الميل دليلَ اعتراف من قِبل هذا البعض بقبول التنازلات ولو كانت مرحلّية! وإذا أجاز أحد هذا الأمر، ألا تكون المرحلّية مؤقّتة وهي في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع ليس بمضمونة النتائج حيث تغيُّر الظروف ومعطيات الانتكاسات المتعددة.

ولهذا: لا حلّ إلا بالعدلية وحدها، أمَّا الاعتدالية (الوسطية) فهي ليست بحلٍّ، بل هي من يأمل الحلّ؛ ولهذا الفرق كبير بين الحلّ، وبين من يرى الميل إلى الحلّ هو الحلّ.

إذن: من يقبل الوسطية حلّا فليس له بدٌّ إلا أن يتخلَّى عمَّا هو عليه من تطرُّف، ثم يقبل بتقديم التنازلات التي بها يتمكَّن من الجلوس مع الآخر ليشكِّل معه جناحي الوسطية اللذين بهما تُحلّق، ولكن إن اكتشف الطرفان أنَّ وظيفة الجناحين تنفيذ قرار الطيران الذي ليس لهما رأي فيه فقد ينقبضان، ولا يمتدان ثانية، ممّا يجعل الوسطية وجناحيها ضحيّة ما كانت تدعو إليه.

ولذا؛ تُرفض الوسطية كونها على حساب إحقاق الحق؛ فهي (أنا) بين (آخَرَين) كلّ منهما يعتقد أنّه على صواب وهو صاحب الحقّ، فتحاول الوسطية أن تُقدِّمَ حلّا مرضيا لكلٍّ من الطرفين، وهذا الحلّ لا يمكن التوصل إليه إلّا من خلال تنازلات يُقدِّمها كلّ طرفٍ للطرف الآخر ووفقا لرؤية الوسطي، الذي يرى أنّ الأمور لا تُحلّ إلّا بما يُمكِّن من امتصاص الغضب وقبول الآخر هو كما هو، ثم قبول كلّ منهما بتقديم التنازلات لأجل أن يتمّ التفاوض والتحاور والمراجعة التي رسم خيوط نسيجها الوسطي.

ولأنَّ كلّا من الأنا والآخر يرى نفسه أنّه على حقٍّ وغيره على باطل فالوسطي يرى أنّ الحقّ ما ليس عليه الاثنان، وفي هذه الحالة يُعتبر الوسطي طرف ثالث، وهذا يُظهر تعدد الأطراف إلى ما هو أكثر من الأنا والآخر، وبإجازة ظهور التعدد في إظهار الحقّ من الباطل فإنّنا نقبل بظهور رابع يمكن أن نسميه المواجه لهؤلاء الثلاثة بالحقيقة؛ أو أنّه الوسيطي الذي يعرف أنّ الأنا قد يكون على حقّ والآخر على باطلٍ

ومع ذلك يتدخل، لجرِّهما إلى نقطة الالتقاء المؤقّتة وفقا لِما يقبل به كلّ طرفٍ من تقديم التنازلات، وفي هذه الحالة كيف إذن سيكون الحلّ؟ هل يكون بقبول ما جاء به الرابع أم من الأفضل أن ننتظر خامسا في دائرة ظهور الممكن؟

كلّ المعطيات على أرض الواقع تُثبِتُ التعدد والحقيقة واحدة؛ فاليمين المتطرّف يرى أنّه المالك للحقيقة؛ ولهذا يَدعو إليها كما هي متهيِّئة له، واليسار المتطرِّف يرى أنّه المالك للحقيقة وغيره لا حقيقة عنده، والوسط كذلك، ويمين الوسط هو الآخر لم يرَ الحقيقة إلا كما هي متهيّئة له، وهكذا كان الماركسيون والبعثيون والناصريون والإخوان المسلمون، وكلّ حزب بما لديهم فرحون وكأنّه امتلك الحقيقة دون أن يترك لغيره شيئا منها، وفي هذا التعدد يذوب الوسطي الذي يعتقد أنّه جاء بالحقيقة؛ ممّا يجعل العدل هو توازن المركز الذي لا يميل عن أحدٍ، ولا يميل به أحد، وهو الذي يسع الجميع دون أن يجعل أحدا منهم طرف متضادّا لغيره.

فالوسطي لو لم يرَ أنّ الطرفين ليسا على حقٍّ، ما قدَّم بينهما حلّا آخر (الحقّ كما هو متهيّئ له)، وفي هذه الحالة لا يمكن أن يكون وسطيا، بل إنّه الآخر غير الطرفين السابقين، الطرفان السابقان ليسا على الحقّ، والطرف الثالث إن كان على الحقّ فهو ليس بذلك الوسطي، بل إنّه المواجه للجميع بالحقيقة وأهمّيّة إحقاقها. وهذه الحقيقة لا تتطلب تقديم التنازلات، بل تتطلب التخلّي، التخلّي التامّ عن كلِّ ما من شأنه أن يؤدّي بالطرفين أو الأطراف إلى الاعتقاد في التطرُّفِ وارتكاب أفعاله بأساليب غير مشروعة وإن شَرَّعَ لَها من شرَّع تحت أيّ صفة من صفات امتلاك القوّة.

إذن: عندما تكون الأطراف المتعددة على غير حقيقة، يكون الغافلون هم الميدان الواسع لانتشار الفرقة بادعاءات الحقيقة التي لا يمكن أن تتجزأ، ولأنَّ الحقيقة واحدة لا تتجزأ؛ لذا لا شرعية لمن يدَّعيها، بل الشرعية لمن لا يحيد عنها. وهنا على العقل البشري أن يُفرِّق بين مُدعي الحقيقة والحقيقة هي كما هي؛ فإن لم يتمكَّن من التمييز سيجد نفسه مُنجرًّا تحت مظلة أحد المدَّعين لها غفلة لا صحوة. وهؤلاء ومن على مثلهم، هم الذين في حاجة لوسطي؛ ليجذبهم عمَّا هم فيه من غفلة لتكون الصحوة من بعد ذلك دافعة تجاه الوقوف على الحقيقة التي سبق لهم الغفلة عنها.

أمَّا أولئك الذين هم على الحقيقة سواء أكانوا أناة أم الآخرين فهم ليسوا في حاجة لوسطي يجرَّهم إلى الوسطية أو الوسيطية ليكون الحلّ مع غيرهم من الذين هم على الظلم المركَّب من الجزأين، جزء من الحقيقة والجزء الآخر من الباطل؛ ممّا يجعل الوسطية أو الوسيطية مكوِّنا مركَّبا من قبول جزءٍ من الحقِّ مع جزءٍ من الباطل، وإن تمَّ ذلك يصبح كلٌّ منهما لا حقيقة بأسباب خلط جزءٍ من الحقيقة مع الباطل، وكذلك لا تصبح باطلا بأسباب خلط الباطل بالحقيقة؛ ولهذا يكون التعريف بالوسطية من هذا المركَّب؛ ممّا يجعل البعض رافضا لها حيث عدم قبوله اختلاط الحقّ بالباطل، ولا يقبل التعاون والمشاركة مع من يقبل بذلك، بل سيكون البعض متطرِّفا ومقاوما لكلّ هذه الأساليب التي أدّت إلى اختلاط الحقّ بالباطل، ومن هذه الزاوية ينظر إلى الوسطية بأنّها جزءٌ من المشكلة وليس بجزءٍ من الحلّ.

وعندما تطرح الوسطية رأيها حلّا ثالثا بين طرفين تكون قد بعُدت عن الوسط الذي يرسم نقطة التمركز العدل دون ميل؛ فإن كانت الوسطية

بين طرفين يمثِّل أحدهما السلطة (الحاكم)، والطرف الآخر يمثل التطرّف عن السلطة، وعندما تأتي الوسطية وتطرح حلّا وسيطا؛ فهي لم تكن مع رؤية الحاكم بالتمام، ولم تكن مع رؤية المتطرّف بالتمام، وإذا ارتضى الطرفان بما قدَّمت الوسطية من حلّ؛ فهذا يستوجب تنازلات من الحاكم ومن المتطرّف، تجعل كلا منهما على حالةٍ من الالتقاء مع الآخر، ولكنَّه ليس معه بالتمام؛ إذ إنّه ما زال كلّ من الطرفين متمسِّكا بنصف ما كان لديه من أفكار تجاه الآخر ورؤاه مع فتحه خانة جديدة تشغل حَيِّز النصف الثاني الذي فُرِّغ بتقديم التنازلات ليمتلئ بما يتمّ الاتفاق عليه بين الطرفين؛ ولهذا فإنَّ بذور الفتنة التي أنبتت التطرُّف لا زالت متأهبة للظهور من النصف الذي لم يمسَّه تقديم التنازلات كلَّما توفرت لها بيئة مناسبة للنمو.

إنَّ الوسطية في مفهومها اللفظي لا الاصطلاحي تحْمِلُ مدلولات وجوب تقديم تنازلات تستدعي حلّا من أجل فكّ التوترات والخصومات والمصادمات التي تدور رحاها بين الأنا والآخر، فهي بهذه النظرة دورها أقرب لدور الشّرطي لا القاضي؛ فالشرطي إنْ حدثت اشتباكات بين الأطراف الذين هم في دائرة اختصاصه يأتي لفكِّ الاشتباكات ويترك الأمر، وإن اشتكى أحد الأطراف ضد الآخر سيكون الأمر العدل متعلقا بوجوب قاضٍ عدل؛ ليحكم بالحقِّ لا بتنازلات من أحدٍ لحساب آخر، ومع ذلك التسامح والعفو والصلح خير لأنَّه إرادي فيه يتمّ التقدير المتبادل بين الأطراف المتنازعة.

وللتعرُّف على الوسطية ينبغي تحديدها ظرفيا بين مَن ومَن؟

. هل هي بين الحقِّ والباطل؟

. هل هي بين حاكم ومحكوم؟

. هل الوسطية هي المائلة؟ أم هي التي يُمال إليها؟ أم أنّها هي المحفِّزة على الميل؟

. هل الوسطية بين وسطٍ ومتطرّف أم أنّها بين متطرّفين؟

. هل الوسطية بين معتدل ومتطرّف؟ أم هي بين متطرّف وأكثر تطرّفا؟

. هل ستتحقّق الوسطية فعلا على أرض الواقع بما تتركه مجازا أن يؤخذ ميلا تجاه العدل؟

. ألا تكون الوسطية حاملة لبذور فنائها؛ كونها تحمل مبررات العودة إلى التطرّف بمن قَبِل بإعطاء التنازلات حلّا مؤقتا لأن يعود إلى ما كان عليه!

. ألا يعد تقارب الأطراف بتنازل كلّ منهما عن جزءٍ من الحقيقة تطرّفا جديدا عن ملامسة الحقيقة هي كما هي؟

. ألا يكون الميل إلى العدل دليل إثبات أنّه ليس بعدلٍ؟

. هل الحقيقة أن تكون الوسطية على مسافة واحدة من جميع الأطراف عادلها وظالمها، وحاكمها ومحكومها، وحاميها وحراميها؟

إنّ الذي يتنازل عن جزء من قضيّته، ويحاول أن يغيّر قناعاته وبخاصّة في مسألة الدين والعرف والحقوق؛ فذلك لأسباب ظرفية تحدث فيها التنازلات، ولكن عندما تتغيّر الظروف التي فرضت التنازلات ويكون الإنسان قادرا على إحقاق الحقّ؛ فإنَّ الرجوع عن تلك التنازلات أمر لا بدّ منه؛ ممّا يستوجب العودة عن التخلّي عن التنازلات الظرفية، وهكذا المتطرّف عندما يقبل الحلّ تحت ضغط الظروف ويتفاوض من أجل تقديم

تنازلات، فإنْ لم تتغير قناعاته الأولى لا بدّ أن يعود إلى ما كان عليه، وقد يكون أكثر شدّة إذا كانت الظروف تصبُّ في مصلحته؛ ولكن إن كانت عن قناعة تامّة فلن يعود إلى ما تخلّى عنه، ويكون أكثر تمسُّكا بما وصل إليه من حلّ.

بهذه الرؤية تكون الوسطية والوسيطية تقريبيتين، تهدفان إلى تقريب وجهات النظر بين الأطراف المتطرِّفة؛ ممّا يجعل الاتفاق على ما هو ممكن وبقاء غير الممكن ساكنا؛ ولذا فإنّ سكون البركان لا يعني انتهاء أمره؛ بل يعني أنّه في دائرة غير المتوقّع سيكون مفاجئا لمن يعتقد أنّه خمد إلى النهاية؛ ولهذا فالفكر المتطرِّف والرؤية المتطرِّفة إن هدأت وسكنت تدلُّ على أنّها ستثور من جديد ويكون الغبار المنفوض بقوّة نفخُ الثوران كافيا لأن يعيق الحركة التي في مجاله أو حتى توقُّفها كما فعل بركان آيسلندا بالملاحة الجوية في أوربا في شهري إبريل ومايو 2010م.

ولأنَّ الإنسان لا يمكن أن يتنازل عن حقه إلاّ إذا كان غافلا أو مُغفَّلا أو قاصرا أو مغلوبا أو مقهورا ومغيبا، فإنَّه متى ما امتلك مقاليد القوّة وزمام أمره تمكَّن من إعادة حقوقه بالقوّة حتى وإن وُصِفَ من الآخرين بأنّه متطرِّف.

وعندما يُثار التساؤل عمَّا إذا كان التطرُّف قوّة أم ضعفا! يُثبت التطرُّف ذاته بأنّه لو لم يكن قوّة ما كان سببا للتفاوض؛ فهو من وجهة نظر الأنا الحاكمة تطرُّفا هو القوّة التي بها يستقرّ الأمن، وتُفرض الرؤية الخاصة على الآخرين ومن تسوّل له نفسه أن يكون معارضا فعليه بتحمُّل دفع الثمن. وهو أيضا من وجهة نظر الآخر قوّة مُمكِّنة من نيل الاعتراف والتقدير وإعادة الحقوق، وتقويم الاعوجاج.

إذن: لو لم يكن التطرُّف قوّة ما كان لأحداث 11 سبتمبر أثرٌ يُستدل به على المتطرِّفين الذين أصبح الانتماء إليهم بين الشباب يزداد بأسباب توفُّرِ معطيات البيئة التي تنتجه، ومنها: الإجراءات القهرية وانتشار المظالم، والحرمان من ممارسة الحقوق وأداء الواجبات، وحمْل المسؤوليات، ومنها: الاعتداءات الصارخة على الملكية الخاصة والملكية العامة وعلى أعراض النّاس، ومنها احتلال الأوطان وسلب خيراتها، ومن معطياته الرئيسة أيضا المعلومات المزوَّرة، والمساس بالدين والعرف، والمغالبة بغير حقٍّ على المستوى الداخلي (داخل البلد) أو على المستوى الخارجي (في الهيئات والمنظّمات والجمعيّات الدولية والعالمية)، ومع أنَّ البعض يعتقد أنّ الفقر هو الذي يدفع الشباب إلى ارتكاب أفعال التطرُّف، إلا أنَّ القادرين هم الذين يتصدَّرونه فكرا وفعلا، أمَّا أولئك الذين هم على الحاجة لا وقت لهم غير البحث عمَّا يُشبع حاجاتهم وحاجات من له الحقّ عليهم، وبالنظر إلى ما فعله ابن لادن والظواهري، وكذلك الذين نفَّذوا أحداث 11 سبتمبر 2001م، نجد أنّهم لم يكونوا من الفقراء، بل إنّهم من الملّاك والمهندسين القادرين والفاعلين وبعض من الفنيين وأصحاب الرّخص لقيادة الطيران والسيارات.

وهذا لا يعني أنَّ الفقر لا تأزُّمات بأسبابه، ولكن التأزُّمات المترتِّبة على الفقر أكثرها جرائم وانحرافات سرقة، وتعاطي، وتسوُّل، وقلقلة أمن الشارع بما يُخيف المواطنين على أمن ما يمتلكون، وقد يُجَنَّدُ أولئك المنحرفون بأسباب الحاجة من قِبَلِ الآخرين ويُستخدموا بموجَّهات داخلية وأجنبية ضد النظام ومصالح الوطن، وقد يكون البعض من النّاس (مواطنون وأجانب) ضحية بين أيدي الذين دفعتهم الحاجة إلى الجريمة.

ولذا؛ فالتطرُّف لم يكن على نوعيّة واحدة، ولا تنظيما فكريا واحدًا، بل هو المتنوّع مولود البيئات المتنوّعة؛ فهو في أساسه المؤسّس على التهيّؤ والاستعداد والتأهُّب والفعل الإرادي، ولم يكن المؤسّس على التنظيم كما هو حال تنظيم الإخوان المسلمين الذين يخططون ويبرمجون وفقا لأهداف هم يرونها واضحة الدلالة والمرمى ثم ينظِّمون المنتمين إليهم إعدادا وفق حلقات ودوائر ومستويات تراتبية مع القبول بتنوّع الأساليب.

ومع أنَّ التطرُّف في أساسه لا تنظيم فإنَّه بعد التهيّؤ والاستعداد والتأهُّب والفعل الإرادي يصبح في دائرة الممكن ظهور التجمُّع واتساع دائرة المعارف ممكنا؛ ليكون الجهد الموحِّد أقوى من الجهد المنفرد وفقا لقاعدة: (الفرد قوّة، والجماعة أقوى، والمجتمع أكثر قوّة) وتكون المناصرة قاعدة لتبادل المعلومات وتمكين المتطرِّفين من تنفيذ أفعال التطرُّف بنجاح قدر الإمكان.

ولأنَّ التطرُّفَ قوّة؛ فهو المسبب للتصدُّعات والتأزُّمات الحكومية والمرِهق لأجهزتها الأمنية، والمرهق للاقتصاد الوطني والاستقرار الاجتماعي، ولأنَّه كذلك فإنّ القوّة تعد لمقاومته وردعه ومحاولة قهره وهزيمته كلٌّ وفق استطاعته.

وكذلك من وجهة نظر الوسطي فإنَّ التطرُّف قوّة؛ أي: لو لم يعتبره الوسطي قوّة ما عرض نفسه قوّة غير مواجهة له (للتطرُّف)، بل قوّة تعترف به في دائرة الممكن مثلما تعترف بالآخر؛ ولأنّ التطرُّف قوّة فإنّ الكثيرين يخشونه ويجتنبون أصحابه الذين هم في كثيرٍ من الأحيان غير مأموني الجانب.

ومع أنَّ التطرُّف قوّة فإنَّه لا يخلو من نسبة الضعف فيه، وفقا لقاعدة: (لا قوّة مطلقة إلاّ من القويّ المطلق)؛ ممّا جعل من هُم في دائرة النسبية

على القوّة والضعف من متغير لمتغيّر، والضعف بين سالبٍ وموجبٍ هو القوّة في دائرة النسبية والممكن؛ فالذي يُستدرج بداعي الضعف لتقديم تنازلات ويقبل ذلك في فترة ما؛ فهو قادر على أن يحتفظ بقوّة ضعفه التي تسمح له بمقاومة الظرف في الانقضاض على الآخر؛ لاسترجاع ما تمّ التنازل عنه.

ومن يتمّ استدراجه بتداعيات الإصلاح والتسامح والاستيعاب والتَّفاهم والتَّفهُّم من أجل أن يحقِّق الآخر غاية له في ظرف معيّن؛ فهو بعد تغيّر الظرف وتوفّر المعطيات التي تسمح له بالانقضاض ليظهر القوّة التي كان البعض يعتقدها ضعفا؛ فلن يتردّد أبدا ليثبت أنّ قوّة الضعف قوّة تُمكِّن من كان يشار إليه بالضعف بأنّه على القوّة المؤثرة والفاعلة في الزمن غير المتوقّع.

إذن: في معطيات الضعف توجد معطيات القوّة؛ ولهذا ما يظهره الإنسان من ضعفٍ في القولِ أو العملِ أو السّلوك قد لا يكون كما هو مُظهَرا؛ بل قد يكون مغايرا لما في باطنه أو ما يضمره من أجل توفير هذه القوّة التي يراها الآخر ضعفا إلى أن تتهيّأ لها الظروف المناسبة لإظهارها قوّة. وقد يكون إظهار الضعف من أجل استنفاد قوّة الآخر، أو من أجل استدرار عطفه وتغفيله عمَّا يمكن أن يُفكِّر فيه تجاه الآخر الذي يظهر الضعف من أجل غاية في نفسه، وعندما يكون الضعف على هذه الحالة؛ فهو في أعلى درجة من القوّة لِمَا وفّره من جهد في نيل الوطر.

وهنا: يجب النظر إلى القضايا بأبعادها الكامنة، وليس فقط بما يبدو ظاهرا منها أمام الآخرين؛ فمعطيات القوّة تتوافر بمتغيّراتها والظروف التي تسمح لها بالظهور كلّما تهيّأت؛ ممّا يجعل القوّة نبتة قويّة في بيئة الضعفاء

والمستضعفين، وفي مقابل ذلك يصبح الضعف هو البِذْرَةُ التي تنمو في نفوس الأقوياء.

ومن خلال ذلك: فإنَّ الأنا والآخر والوسيطي هم على أطراف القوّة والضعف؛ فالوسيطية تقبل أن تعالج القوّة بقوّة، والضعف بضعف؛ ولأنّها وسيطية: فهي لم تُقرِّ العلاج بالقوّة المطلقة، ولم تُقرّهُ بالضعف المطلق الأمر الذي جعلها على طرفي نقيض من الطرفين.

ولأنّ الوسيطية مؤسّسة على ضعف وقوّة؛ لذا فهي تقبل بمعطيات وجوب التنازل النسبي عن الضعف بالميل إلى القوّة، كما تقبل بمعطيات وجوب التنازل النسبي عن القوّة بالميل إلى الضعف، وأينما يلتقي القويّ مع الضعيف أو القويّ مع من هو أقوى منه تعتمده الوسيطية حلّا مناسبا ومرضيا للطرفين.

ولكن:

. هل تعد نقطة الالتقاء (على الوسطية) هي الحلّ بالحقّ والعدلِ؟

. هل تُعد نقطة الالتقاء (على الوسيطية) إنصاف بموضوعية؟

ومع أنّ الوسطية تطرح الحلول التوفيقية، فإنّها تعلم الحلّ (الحقيقة)، ولكنَّها من أجل نزع فتيل الاشتعال تقبل غض النظر عن بعض الحقائق وما يستوجب أن يكون من حلٍّ عدلٍ.

ولأنّ الأمر كذلك ألا تكون معطيات التطرّف قد تأسّست من جديد برؤية وسطية تعلم أنّها قد نزعت الفتيل وأبقت اللغم بجانبه الأمر الذي يُمكِن لأيٍّ كان أن يُعيد الفتيل إليه لِيَنفَجِرَ من جديد بقوّة أعنف مما كان عليه ويصبح الغافلون هم الضحيَّة المعرَّضة للتفخيخ في الصدامات الدائرة رحاها بين متطرّفٍ وأكثر تطرُّفًا.

التطرّف والدين:

الدين من عند الله تسامح ومودة وتآخٍ ورحمة بين الأنا والآخر؛ فلا تطرُّف فيه، ولكن التطرُّفَ إن أُلبسَ للدين فلا يلحقه، بل التطرُّفَ يلحق من حاول إلباسه إياه. عند المسيحيين يقال: (إذا ضربك أحد على خدك الأيمن فأعطه الخدّ الأيسر). وعند المسلمين الله يقول: {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}[67]؛ ولذلك فالدين شيء والتطرُّف شيء آخر، وإذا كانت الأديان السماوية من التسامح والدعوة إليه بما لا نجده في أيّ نصٍّ أو كتاب. إذن فما هي المبررات والمعطيات التي أوجدت مصطلح التطرّف الديني؟ ألا تكون هذه كلها من أفعال وسلوك المتطرّفين أنفسهم؟

وإذا كان الوعي والفهم لبعض بني البشر قاصرا عن إدراك مقاصد النصوص الدينية، أو أنّ البعض الآخر ينحرف بمقاصد هذه النصوص عن غاياتها النبيلة من أجل تبرير موقف أو الوصول إلى غاية قضاء المآرب من خلال التطرّف بالبعد عن حقيقة النصّ الديني أو قصد عدم فهمه؛ فمن غير الحق أن ينسب التطرّف إلى الدين.

القراءة متغيرة والنصّ ثابت:

النصّ الديني ثابت واجب الحفاظ عليه، وأمّا مسألة القراءات المتغيّرة؛ فهي من أجل فهم النصّ من وجوه متعددة تفضي بالنتيجة إلى سبيل واحدة وإن تشعّبت طرقها واختلفت أساليبها لدى العقلاء من أجل التيسير ومواكبة كلّ عصر وما يستجدّ به من أحداث تستدعي قراءات جديدة وليست متغيّرة؛ لأنّ القراءات الجديدة وفق هذا الإطار

[67] آل عمران 159.

تحافظ على القراءات السابقة التي أدّت دورها في عصرها. وأمّا القراءات المتغيّرة فيجب أن تتضمن فسح المجال للتفاعل مع العلوم ومعطيات العصر وتطوّره في إيجاد نوافذ المناخ الملائم للابتكار والإبداع والتجديد دون أن يمس النصّ بالتغيير.

إنّ تعددية قراءة النصّ الديني من قبل كثير من الباحثين والمثقفين والمفكرين تطرق أسماع البعض لتقذف في تفكيرهم روح البحث عن حقيقة هذه القراءات وخلفياتها وطموحاتها، وبخاصة عندما كثر ترديدها من أفراد وجماعات لا تُعرف بعلاقة ودّ مع الخطاب الديني عامة والخطاب الإسلامي على وجه الخصوص، وربما كثير منهم أيضا اتخذ من هذه القراءات شعارا في الممارسة من أجل أن يلوي عنق الحقيقة انطلاقا من أهدافٍ، ووصولا إلى غاياتٍ خدمةً لمصالح.

هذه القراءات كانت قبل عقود مضت حكرا على الاتجاه العلماني بشقَّيه اليمين واليسار في تطرّفهم ضدّ الدين، ومن ثمّ انضم إلى هذا الاتجاه عن قصد أم عن سوء فهم جماعة الغلو من المسلمين التي قرأت النصوص الدينية وفهمتها على طريقتها الخاصّة حين وجدت نفسها محاصرة بقراءات أهل الذكر من العلماء والفقهاء في القديم والحديث استنادا إلى قواعد فهم الخطاب الديني واصوله وفق نظمه وأسسه المستندة إلى مجموعة الأسس والقواعد الأصولية في العدل والضبط.

إنّ القراءة المتغيّرة من الغلاة للنصّ الثابت ما لم تستند إلى ضوابط فهم النص الديني فسوف تؤدّي إلى تغيير مدلولات النصّ وانعكاساته السّلوكية، الأمر الذي يفضي بالنتيجة إلى الالتقاء بين طرفي المشكلة من متطرّفي العلمانية وغلاة المسلمين قصدوا ذلك أو لم يقصدوه؛ لأنّ القراءات المفارقة لثوابت فهم النصّ في العدل والضبط سوف يؤدِّي إلى

تفكيك النصّ وتفريغه من الحقّ وعدميته في القول والفعل والسّلوك، ومن ثمّ يجعل الأبواب مشرّعة أمام كلّ اتجاه أو مذهب أو جماعة أو حزب أو طائفة، أو حتّى على مستوى الفقيه الواحد أو المفكّر الواحد أن يُعمل قراءته الخاصّة في النصّ الديني سواء أكان هذا النصّ قرآنا أم غير ذلك، انطلاقا من معطيات ذاتية من المعارف والثقافات التي يتمتّع بها وتكون ذات مصادر متعددة ربّما تذهب إلى البيئة والجغرافيا والعرق، وبهذا النوع من القراءات يَخرُج النصّ الديني عن حقيقته الإلهية ليُطوّعَ لأغراض دنيوية!

فمن الذي يلزم الآخر الاتّباع؟

القراءة هي التي تلزم النصّ أن يتبعها، أم أنّ القارئ هو الذي يلتزم النصّ وروحه؟

إنّ قراءة النصّ الديني ليست قراءة نقدية يُحاجج بها مبدع النصّ؛ فمن يعمد إلى ذلك، أو تكون قراءته بهذه النظرة؛ فسوف يخرج بانطباعات نفسية لا تمتّ إلى الأحكام العقلية والمنطقية بصلة، ويكون الحكم على القراءة بالشعور والانطباع الذي يودّي به إلى منعرجات التطرّف.

إنّ التغاير في القراءات المستندة إلى الأصول الضوابط هو من باب التوسعة ومجاراة معطيات كلّ عصر وما يطرأ فيه من تطورات من أجل إيجاد حلول لقضايا لم تكن موجودة من قبل، وهذا لا يقتصر على النصّ الديني، بل حتى النصوص الوضعية يُعاد قراءتها من أجل إيجاد حلّ لمشكلة لم تكن موجودة قبل وضع النصّ الوضعي، فإذا كانت النصوص الوضعية المرحليّة تُعاد قراءتها من وجوه متغايرة، فمن باب أولى أن تُعاد قراءة

النصوص الإلهية التي تتّصف بالديمومة طالما جرى الزمان على المكان، ولكن لا لتغيير النصّ، بل لتجويد تنفيذه رغبة وإرادة.

إذن: فمشروعية تعددية القراءات المتغايرة للنصوص لا تقف عند حدود النصّ الديني، ولن يكون ذلك مقبولا على النحو الذي يدعو إليه التطرّف أو المتطرّفون. إنّ مشروعية القراءات المتغايرة تشمل جميع النصوص الدينية منها والوضعية على حدٍّ سواء، وفقا لهذا المنطق وانطلاقا من هذه المسلَّمة؛ فلو عدنا إلى جملة من التراث الإنساني في الفكر والأدب والفلسفة لوجدنا لها مئات من القراءات المتغايرة تحاول أن تربط نفسها بالنصّ إضافة إلى كونها منطلقة منه أصلا وهو منطلقها.

إنّ التغيير والتبديل الذي نقف عليه من أفكار في فهم النصوص ملازم لأذهان النّاس بما يختلفون من ثقافة ووعي، إلا أنّ الدين ثابت من حيث النصّ، أمّا التعامل فيكون باختلاف القراءة وحسب فهم القارئ، وأمّا الذين لا يعتقدون دينا سماويا فلديهم عرف مكوّن من مجموع قيم المجتمع؛ ممّا يجعل من هو خارج عن المجتمع بسبب فهمه الخاطئ أحيانا لهذه الأعراف هو في دائرة المنحرفين والمتطرّفين.

ومع أنّ الديانات السماويّة (اليهودية والمسيحية والإسلام) هي ذات نصوص ثابتة، إلا أنّنا نجد في الديانات الثلاث من هم من أصحاب اليمين، ومن هم من أصحاب اليسار، ومن هم من أصحاب الوسطية؛ فلماذا هذا التعدد الثلاثي (يمين ويسار ووسط)؟ إنّ مردّ ذلك لا يأتي إلّا من القراءات المتغايرة للنصوص الدينية وسواها وبخاصة الرّسالة الخاتمة التي نسخت كلّ الرسالات السابقة عليها.

ولذا: لا يوجد علم على الإطلاق أيّا بلغت مكانته، أو سما مصدره (وحيا سماويا)، أم فكرا بشريا، إنسانيا واجتماعيا كان، أم طبيعيا وتطبيقيا

يسلم من الانحراف في التأويل نتيجة الفهم الخاطئ أو القصور عن الفهم أصلا، فيقع الفكر في دائرة التحيّز الذي يفضي إلى الانحراف الموقع في التطرّف.

لقد أثبتت الحقائق والدراسات والبحوث حقيقة ذلك الإشكال وقيام الأيديولوجيا بتأثيراتها في صياغة العديد من القوانين والنظريات الفكرية والعلمية بلا استثناء، هذا فضلا عن الانحراف أو التطرّف في التطبيق أو الممارسات.

إنَّ الفهم المتغيّر للنَّصِّ أحيانا يكون مناقضا لروح النصّ الذي يفضي إلى:

. بدأ التطرّف عن عدم فهم النصّ.

. التمسّك بالرؤية الخاطئة نتيجة الفهم الخاطئ.

. عدم المقدرة على الوصول إلى معطيات النصّ.

. الخروج على معطيات النصّ الثابت بمعطيات أقحمتها القراءة على النصّ.

هذا الخروج عن معطيات النصّ الثابت يؤدّى إلى تثبيت فكرة جديدة مناقضة للمعطيات تدفع صاحبها إلى اعتناق استنتاجاته الفكرية الخاطئة التي تدفعه إلى التطرّف الفكري بتثبيت ما يعتقد، وعندما يتجاوز التطرّف الفكري التهيّؤ والاستعداد إلى أن يصل إلى التنفيذ في الرؤى كرها يكون على حساب الآخرين وباسم الدين والدين منها براء.

إنّ الدين وحقيقته هو التنزيل من ربّ السماء لا انحراف فيه ولا خطأ ولا تطرّف، وربّ السّماء هو ربّ الكافة وليس ربّ الخصوص.

إنّ التغاير في قراءة النصوص لدى القاصرين عن مواكبة النصّ للحدث أنتج لديهم اختلافا كبيرا في القول والفعل والعمل والسّلوك نتيجة القصور الثقافي وإنْ وجِد الجانب العلمي، ولذلك فالمعارف التي يكتسبها الإنسان يجب أن تهذِّب كلّ سلوكه، وتخلّصه من الشوائب والانحرافات السّلوكية والتطرُّفات الفكرية.

وبالتالي: فإنّ تعامل هذه العقلية مع النصوص يكون في أعلى درجات المنطقية البعيدة عن الانحراف والتطرّف، الأمر الذي يجعل من الإنسان سوي السّلوك ومستقيم الاتجاه، ولذلك فهناك من يكون قوله وفعله وعمله وسلوكه متطابق مع معطيات النصّ الديني (هو كما هو) بما أُريد له أن يكون دليلا للبشرية، ولكن أيضا هناك من ليس كذلك.

إنّ التطابق بين القول والفعل وبين العمل والسّلوك يوجد عند البعض مبنيا على إرادة تدفع الفكر الذي يجمع القصد والاتجاه مع العلم وقيام الحُجّة إلى هدف يريد إنجازه وغاية يبتغي تحقيقها بما لا يخالف مقاصد النصّ.

وقد تجد التعارض واضحا لدى البعض الآخر فيما يحمله من مبادئ ناتجة عن قراءة سليمة، تدعو إلى قيم إنسانية ومثاليات رفيعة، وما تنمّ عنه سلوكياتهم العملية التي تنزل بهم إلى مستوى التنكّر العام لكلّ تلك القيم والمثاليات التي يقولون بها.

هذا التناقض عند الأنا مدعاة لظهور بعض الممارسات في التطرّف من الآخر كصرخة احتجاج مدوّية على ما يحمله هذا التناقض الصارخ بين القول والفعل والعمل والسّلوك من معانٍ تظهر شدّة التباين وتعبّر عن الفهم الخاطيء لمقاصد النصّ.

فالفجوة الكبيرة بين الأقوال والأفعال والأعمال والسّلوكيات في هذا الصدد تظهر صورا كثيرة من سيطرة العادات والتقاليد والموروث الثقافي عامّة على المجال الفكري لدى كثير من القراءات المغايرة، بحيث تحاول تطويع النصوص لما تحمل من أفكار تريد أن تمنحها صفة القداسة عن طريق قراءة النصّ الديني والخروج بالنتيجة التي كانت محدّدة مسبقا قبل القراءة من قِبَل القاريء؛ ولذا تخرج الأفكار متذبذبة بداية شيئا فشيئا إلى أن تستقر في مقرّ التطرّف، ومن هنا: لا يكون ثمّة توازنٍ بين القول والفعل والعمل والسّلوك في هذا الإطار.

ولما كان أصحاب الأفكار الموجّهة التي تبحث عن دليل من النصوص تنسب نفسها إليه أو تصدر عنه وفق رؤيتها، جاء العمد إلى تطويع القراءة ومفاهيمها إلى ما يُحمَل من أفكار يُستنبط منها أحكام تدفع إلى مواقف التطرّف سواء أكان أصحابها سياسيون يريدون أن يوظفوا الدين لمآربهم أم الآخرون الذين قد يبنون رؤيتهم على الظنّ أو لجهلٍ قد ألمَّ بهم، فالذين يبنون رؤاهم على الظن (الباطل) تكون تقديراتهم في غير محلّها؛ ممّا يؤدّي ببعض منهم إلى ارتكاب أفعال التطرُّف.

وأمّا الجهل فمردّه إلى التزمّت في الرأي الصادر عن القراءة في ادّعاء العلم ورفض الآخر وعلمه؛ فكانوا جاهلين بما يعلمون وبما يعلمه الآخرون ممّا لا يعلمون؛ ولذا خرجت آراؤهم عن العلم بجهلهم، عندما حمّلوا النصوص ما لا تحتمل عند العلماء على غير ما هي عليه وقالوا على العلم بغير علم.

ولما كانت آراء هؤلاء ومن هم على شاكلتهم إمّا ظنًّا (كاذبا) وإمّا جهلًا (باطلًا) فلا بدّ أن يؤدّي إلى انحراف يفضي إلى التطرّف، والجهل

والظنّ أوّل ما ينتج عنه اختلال في الفهم والعلم يترتّب عليه تطرّف في العمل والسّلوك نابع عن إرادة.

ولأنّ الأفكار هي الموجّهة للسلوك والضابطة له والمتصلة اتصالا وثيقا بالأعمال الصادرة عن الإنسان، فإنّ الفهم الخاطئ للنصّ الثابت يؤدِّي إلى تطرّف فكري يترتّب عليه تطرّف في العمل والسّلوك.

وكما أنّ السّلوك السويّ يمتلك إرادة كما أشرنا، كذلك السّلوك المنحرف الذي يؤدِّي إلى التطرّف هو أيضًا صاحب إرادة؛ ذلك أنَّ الإرادة قوّة من القوى المحركة للإنسان مرتبطة بالتصميم والعزم على فعل الشيء بعد التهيّؤ والاستعداد والتأهّب، فعنها تصدر الأعمال الإرادية للإنسان، ولابدّ من القول: إنَّ الإرادة غير الرغبة التي تميل النفس إلى تحقيقها، ولكن الفرق أنّ الميل برغبة والإرادة بحزم، ولذا قد يوجد الميل ولا توجد الإرادة، والإرادة تشمل الميل والشعور والحزم، ثم العمل، ومن ثمّ فهي القوى المحركة لملكات الإنسان والدافعة لها إلى العمل.

فعند وجود التطابق في الرؤية والمفهوم مع النصوص يصبح القول والفعل والعمل والسّلوك متوازنا مع رؤية النصّ المؤسّس للقدوة الحسنة، أمّا إذا تمّ الحياد عنه فيصبح الفعل والقول والعمل والسّلوك في أودية بعيدة المقاصد، الأمر الذي يجعل القراءة وفق رؤية الشخص أو القارئ قاصرة عن استيعاب النصّ (هو كما هو)، وعندما يتولّى المتشبّع بتلك الرؤى الآخرين بالإرشاد والتعليم سيكون الآخرون في هذا الاتجاه الذي انحرف وتطرّف عن النصّ؛ فهنا تتعدد الرؤى مع أنّ اتجاه النصّ واحد، ولأنّ الدين ثابت والقراءات متغيّرة فالقراءات تتبدّل وكذلك المواقف.

وعليه: وجب على القراءات المتغايرة أن تسترشد بالحُجّة دون التمسّك بالأحكام المسبقة، وعند الاحتكام ينبغي العودة إلى النصّ

الأصلي لا العودة إلى ما كُتب عنه، فرؤى الأفراد والجماعات التي كُتبت عن النصّ هي رؤى غير كاملة مقارنة مع كمال النصّ الديني؛ ولهذا فالقراءات السليمة تؤكّد على أهمية الفضائل التي تعد من الثوابت التي لا مناص عنها، والقيم السامية بأساليب متنوعة ترتقي من حسن إلى أحسن وتفضي إلى تجويد النصّ والتمسّك به، أمّا الانحياز عن أبعاد النصوص ومفاهيمها فلا يعد تنوعا، وإنّما يعد اختلافات وتباينات تستوجب من أصحابها المراجعة التي يتمّ من خلالها المقارنة الموضوعية للقول والفعل والعمل والسّلوك مع أبعاد النصّ ومراميه الرئيسة من أجل العودة إلى جادة الحقّ؛ ولهذا فإنّ تطرّف الأفراد والجماعات أو عدم تطرّفهم رهين الفهم الصحيح والاستيعاب أو عدم ذلك، وهنا إن أردنا إصلاحا فإمكانية عودة المتطرّفين ميسّرة والسُّبل واضحة المعالم وطرقها سهلة وأساليبها في دائرة الممكن متنوعة ومتعددة.

ولكن هل كل أحدٍ قادر على قراءة النصّ؟

إنّ قراءة النصّ ميسّرة ومُمكنة لمن أراد أن يمتلك معطيات قراءة النصّ، ولكن هذا غير متوّفر عند البعض؛ لذلك يلجأ الكثير من هؤلاء إلى انتقاء قراءات سابقة باتجاهات سابقة خارجة عن النصّ، ومع ذلك يتمسّك بها وكأنّها النصّ، وهي ليست كذلك، هذا الأمر لا يؤدِّي إلى الحلّ، فالحلّ يستوجب العودة إلى المصدر الذي يُحتكم به ويّحتكم إليه، إنّه المصدر المحايد الذي لا وسيط فيه ولا توسط، بل الاعتدال المحقّق للتوازن بين المراكز مهما تعددت داخل الحدود وخارج الحدود؛ لأنّ الربّ واحد، والحقّ واحد، والدين واحد، والعدل واحد، ولكنّ الذين ينحرفون في قراءة النصّ ليسوا على مستوى واحد؛ وهو ليس عيبا؛ ولكنّ العيب أن تصدر أحكام من هؤلاء وهي لا تتطابق مع النصّ الذي يرى أنّ

الجميع هم المركز. وعندما تتعدد القراءات على البيّنة الواحدة وإن تعددت أساليبهم ورؤاهم فوجب ألّا تخرج عن الحقّ والعدل.

ومن العيب أن تتعدد المراكز على حساب مراكز آخرين، وهذا ما يولّد التطرّف؛ فواجب على الجميع أن يعترف أنّ الكلّ مركز وفقا لقدراتهم واستعداداتهم وثقافاتهم وإمكاناتهم الشخصية ومهاراتهم ومعارفهم وعلومهم.

إذن: فأين الدين من التطرّف؟

إنّ الديانات السماويّة على وجه العموم جاءت لتخرج النّاس من الظلمات إلى النور؛ فما من عاقل يقول: إنّ دينا من عند الله تعالى جاء ليدعو النّاس أو بعضا منهم إلى التطرّف أو العنف أو سفك الدّماء بغير حقّ، ودليلنا في ذلك أنّ هذا الاتّهام لا يوجّه إلى الكافة من معتنقي دين معين سواء في ذلك الإسلام أم المسيحية أم اليهودية، وإنّما يوجّه هذا الاتّهام إلى بعض من معتنقي هذه الأديان، ولما كان توجيه التّهمة للبعض فقد خرج البعض الآخر وتمّ تبرئتهم من التطرّف على الرغم من أنّهم يدينون بدين من وجّه إليه الاتّهام في التطرّف.

ولأنَّ الدين من عند الله يأمر بالعدل والإحسان، والتطرّف ليس من العدل في شيء وبعيد عن الإحسان بأشياء، فَلِمَ يربط البعض التطرّف بالدين ويسوّقونه تحت عنوان (التطرّف الديني)؟

وهنا: لا ينبغي التسليم بربط الدين بالتطرّف ومزجهما في مصطلح يرمي إلى مهاجمة دين بعينه؛ لتطرّف أفراد قد فارقوه (مراكز كانوا أم أطراف).

فهل المتدينون متطرّفون لأنّهم متدينون؟ أم المتطرّفون متديّنون لأنّهم متطرّفون؟

من طبيعة الأمر ألّا يكون هذا ولا ذاك؛ لأنّ المتديّنين متمسّكون بدينهم الذي يأمرهم بالعدل والإحسان وإحقاق الحق وإعمار الأرض وعدم إقصاء الآخر وعدم إراقة الدماء بغير حقّ؛ ولأنّ المتطرّفين بعيدون عن الدين الذي يأمر بالعدل والإحسان والإصلاح في الأرض وإعمارها وعدم إقصاء الآخرين وعدم إراقة الدماء بغير حقّ، لا علاقة لهم بالنصّ المقدّس في الكتاب من عند الله، فهم المتطرفون والدين ليس كذلك.

إنّ الذين أطلقوا مصطلح التطرّف الديني أرادوا من ذلك دينا بعينه هو (الإسلام) وقالوا إنّه يشكّل خطرا على الحضارات الأخرى، فالذين أطلقوا المصطلح على هذا الدين ويتحدّثون عن هذا الخطر المزعوم ما بين جاهلٍ ومتعمّد في فهم حقيقة هذا الدين الذي يتّهمونه بالتطرّف، غير أنّ هذا الخطر إن وجد يكمن في تكوين مجموعات متطرّفة تتخذ من أيّ دين غطاء لها كنوع من تبرير العنف الدموي التي تريد أن تضفي عليه مشروعيّة نتائج أعمال وسلوك المتطرّفين، ومن الواجب ذكره أن الذين عمدوا إلى إلصاق التطرّف بالدين قد تناولوا النتائج وأهملوا الأسباب التي أوجدوها؛ فكانت مدعاة إلى نوع من الرفض لممارسات غير مشروعة في المواقف السياسية والاجتماعية والاقتصادية باعتبارها المنابع المغذية للتطرّف من متطرّفٍ أوّلٍ إلى متطرّفٍ ثانٍ، وهكذا يزاد التعدد؛ ما يجعل التطرّف الأوّل لا علاقة له بالدين، ولا التطرّف عن التطرّف نابع من دين بذاته.

وهناك من يرى في الأصولية خروجا عن النصّ ويذهب إلى أنّها تغذي التطرّف وتدفع إليه فهذا بعيد كل البعد عن الحقيقة؛ لأنّ الأصولية تعني

التمسّك بالجذور الدينية والعودة إلى أصولها في محاكاة النصّ والالتزام به، وهو ليس حكرا على دين دون سواه وفي كل الأديان.

الجهاد والتطرّف

الجهاد عند المسلمين فضيلة وقيمة مُقدّرة، به يُقدّر من يَقدِم عليه فعلا وسلوكا، وهو الحقيقة بدلالتين: دلالة سلوكيّة ظاهرة أو مشاهدة، ودلالة عقلية كامنة أو ملاحظة، فعند الإقدام على تنفيذ الفعل الجهادي، يعرّض الشخص المجاهد نفسه إلى مواجهة الموت الذي بالضرورة سيفوز على الموت بموته؛ ولذلك يُكتب له الاستشهاد ويكون شهيدا، والعرب في مورثها الثقافي تقول: (من يطلب الموت تُكتب له الحياة)، والشهيد حيّ لقيامه بأعمال الجهاد الممجَّدة من قِبل الجميع تمجيدا يجعل المقدِمَ عليه على الألسن الشاكرة والمثنية، وذلك بمقارعة المجاهد للموت عن حقّ دون خوف أو تردّد، وكلّ من يستشهد على الحقّ بإرادة واعية، يعترف الجميع له بأنّه شهيدٌ على الحق قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}[68]؛ ولذلك فالجهاد في سبيل الله ليس اعتداءً على الآخرين، وليس في سبيل سلطة، أو ثروة على حساب الآخرين ومصالحهم وحقوقهم.

ومن الناحية الإيمانية يعد المجاهد منتصرا منذ قبوله تحدّي الموت الذي يفوز عليه عندما أصبح الموت بالنسبة إليه لا يشكّل حاجزا من الخوف، ويفوز عليه قبل ذلك عندما قرّر المنازلة معه دون خوف، وفي كلتا الحالتين يكون المجاهد منتصرا إمّا بتحقيق النصر، وإمّا بتحقيق الشهادة، أمّا الذين يطلقون مصطلح الانتحار على صاحب هذه العقيدة وأنّه قدّم نفسه للتهلكة بإرادة؛ ذلك أنّهم لا يعرفون المبررات العقائدية والإيمانية والمعرفية

[68] – آل عمران 169

التي جعلت من الخائف مخيفا لأولئك الذين جعلوا من الجهاد والفداء انتحارا.

فالانتحار بالمصطلح المتداول في معناه ليس له أصل في لغة العرب وثقافة المسلمين ولا في إرثهم الحضاري، ومثله في ذلك مثل بقية المصطلحات الوافدة على الثقافة واللغة في استبدال معنى مصطلح بمصطلح غيره، أو إعطاء مصطلح غير معناه كالإرهاب والتطرّف.

ففي اللغة العربية لا يُطلق هذا المصطلح على من أجرى فعل الموت على نفسه، وإن وُجد ولكن في غير هذا المعنى لغير الحي العاقل فتقول العرب:

انتحرت السحابة فأهرقت ماءها، وتقول: نحر السيل الوادي فانتحر الوادي، وأمّا فعل النحر على الأحياء فهو متعد بفاعل إلى مفعول يقع عليه النحر مثل: نحر الجزار البعير والبعير لم ينتحر، أمّا الذي يُجري الموت على نفسه فهو إمّا أنّه ألقى نفسه في التهلكة فهلك، وإمّا أنّه قتل نفسه والأدوات كثيرة، ولما كانت هذه اللغة لها معانيها ودلالاتها في استخدام المصطلح على دلالة الفعل خاطبها الله تعالى وفق مفاهيمها فقال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا}[69]، فلو أنّ هذا المصطلح تفهمه العرب بالمعنى الذي يُراد له أنّ يفرض عليها لجاءت الآية (ولا تنتحروا، أو لا تنحروا أنفسكم).

فهذه القضية مرتبطة بقتل النفس وقتل الآخر، ولما كان قتل النفس وقتل الآخر له أحكامه في الدين والشريعة ويعاقب القاتل بالقتل وهو معروف لدى أهل الدين وأصحابه، والذين يمارسون أفعال القتل صباح

[69] – النساء 29

مساء أرادوا استبدال المصطلح كي يفلتوا من العقاب أو الإدانة؛ فدفعوا بمصطلح الانتحار الغريب لتُلبّس أفعاله لمن لا يؤمنون به؛ فهو قتل نفس، وقتل النفس بغير حقّ بالنسبة إليهم محرّم، ولذلك ما تسوّقه وسائل الإعلام لأعمال الفداء بالوصف الانتحاري توصيف في غير محلّه، ويا ليتهم يتداركون ذلك بالتصحيح، ولكن إن كان الفعل ليس بفعل فداء على البيّنة؛ فهو تهلكة، ودين المسلمين قطعا نهى عنْهُ.

وعليه: فالانتحار وليد المجتمعات المادية التي تفتقر إلى الجانب الروحي المطمئن للنفس بالإيمان، وهو الإصرار على التخلص من الحياة في أوقات الحاجة إليها، وهو آخر إنجاز سيئ في حياة الإنسان، ولا يمكن أن يتمّ فعل الانتحار في زمن استخدام المنطق، والمجتمعات التي تتفشى فيها ظاهرة الانتحار هي بطبيعة الحال مجتمعات تعاني من تأزُّمات روحية أو فراغ روحي؛ فلا يجيب على تساؤلات المنتحرين.

إذن: الانتحار لم يكن في سبيل قضايا ولا في سبيل معتقدات؛ فلو كان كذلك لكان فداء، بل هو في حقيقة الأمر هروب من الواقع وهروب من الحياة، ولكن عندما يكون الفعل في سبيل قضية سامية يتحول الأمر من هذا الفعل المشين إلى أفعال التضحية والفداء من أجل فضائل خيّرة وقيم سامية يكون فيها المقدِم على الموت شهيدا فائزا بالشهادة؛ فكُتبت له الحياة السرمدية.

ومع ذلك فالانتحار هو فعل يتمّ الإقدام عليه بإرادة، وهو إلقاء إلى تهلكة؛ وبالتالي الديانات السماوية لا تعده مفردة من مفرداتها، بل تحرّمه، أمّا ما يجري من جهاد وفداء في سبيل الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، يُلاحظ على وسائل الإعلام تعمّدا في طمس هذا المصطلح وتغييبه؛ فالفداء في محلّه واجب والجهاد في محلّه واجب، والتضحية في محلّها واجبة،

وهذه الفضائل والقيم في غير محلّها لا تكون إلا تطرّفا وانتحارا؛ ولهذا الاعتدال الذي به يحقّ الحقّ هو كما هو، يؤدّي إلى توازن القراءة التي ينتج عنها القول والفعل والعمل والسّلوك المتوازن؛ إذ لا يجد الظّلم فيه محلّا يركن إليه.

ومن يحاول أنْ يوظّف مفاهيم في غير دلالتها فهو المتطرّف وليست المفاهيم، فالجهاد لا خوف منه ولا خوف عليه، وكذلك الفداء؛ فالخوف دائما من التطرّف والمتطرّفين الذين لا يُقدّرون أو لا يقفون عند الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، بل يهبطون إلى ممارسة أفعال الأراذل؛ فالذي يقرّر ألّا يكون للجهاد والفداء مكانٌ في المقررات التعليمية والثقافية والإعلامية فهو من يسلك سلوك المتطرّفين أو من يكون دافعا لهم تجاه التطرّف.

فالجهاد والفداء لا ظلم من ورائهما، ولكن من يقدم عليهما بغايات على صفات من لا يتّصف بهما فهو المنحرف والمتطرّف الذي حاد عن نهج الجهاد والفداء.

وفي مقابل ذلك إنْ قَبِل التربويون وساسة التعليم حذف مصطلح الجهاد والفداء من القواميس والمقررات التربوية والتعليمية، فلا صفة يمكن أن تلحقهم إلا صفة التطرّف؛ فالجهاد والتضحية والفداء فضائل وقيم منصوص عليها في الدين والشريعة والعرف؛ ولذا فإنّ الذين يطلقون المصطلحات في غير أماكنها فقد أساؤوا القصد مثلما أساء قارئ النصّ فهمه.

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف 68 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

صدر له (126) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعية والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

المؤلّفات

1 . مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 . الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3. فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 . منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 . سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 . المفاهيم العلمية دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربية للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 . البستان الحلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 . التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 . الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا،

2001م.

10 . نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 . خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 . منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 . خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 . خدمة الجماعة رؤية قيمية معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 . البرمجية القيمية لمهنة الخدمة الاجتماعية، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 . البرمجية القيمية في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 ـ البرمجية القيمية في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعية، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 ـ البرمجية القيمية في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 ـ مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 ـ المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت ـ دمشق، 2009م.

22 ـ موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2009م.

23 ـ ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

24 ـ مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

25 ـ خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

26 ـ قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

27 ـ أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

28 . آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

29 . نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

30 . إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

31 . إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

32 . شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

33 . يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

34 . داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

35 . يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

36 . أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

37 . موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

38 . عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

39 . محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

40 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 ـ موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 ـ التطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 ـ ألسنا أمةً وسطا، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

53 ـ المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

54 ـ الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 ـ الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 ـ سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 ـ خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقّع وغير المتوقّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59. من قيم القرآن الكريم (قيم تدبّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60. من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 . من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 . من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 . من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 . من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 . من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 . من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 . من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 . من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 . الرفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 . تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 . ربيع النّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 . موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 . أسرار وحقائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 . وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 . ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 . العزل السياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 . السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 . الهويّة الوطنية بين متوقّع وغير متوقّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 . العفو العام والمصالحة الوطنية، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 . فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 . بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 . من معجزات الكون (خَلق . نشوء . ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 . مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 . آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 . إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 . نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 .

90 . هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 . صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 . لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 . إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 . إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 . إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 . يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 . يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 . شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99 . أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100. ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 . يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 . موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 . هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 . إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 . اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 . داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 . سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 . زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 . يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111 . محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 . الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 . صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 . الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 . مبادئ التنمية البشرية، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 . من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 . التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 . منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 . الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 . المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 . مبادئ فكّ التأزّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 . تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 . مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 . الممكن (متوقّع وغير متوقّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 . الوجود من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 _ المعلومة الصائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

المؤلّف في سطور

أ د. عقيل حسين عقيل

مواليد ليبيا 1953م

بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الأولى جامعة الفاتح (طرابلس).

ماجستير تربية وتنمية بشرية جامعة جورج واشنطن 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعية.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب من قبل مؤتمر الشعب العام مفتشا عامّا لقطاع الشؤون الاجتماعية، ثمّ كلّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينا عاما للتنمية البشرية بأمانة مؤتمر الشّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 78 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له (126) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

. أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعية والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية